النهر العذب

المجموعة الكاملة لمحاضرات سماحة العلامة

١

النـهـر nhr-azb

٩٠ X ٦٠

النهر العذب
المجموعة الكاملة لمحاضرات سماحة العلامة

الشيخ
محمد الحسن الددو الشنقيطي

المجموعة الأولى
(كيف نعمل للإسلام، مقومات شخصية المسلم،
التوازن والاعتدال في حياة المسلم)

اعتنى به
د. علي بن حمزة العُمري

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا ويرضى.

والصلاة والسلام على خير خلقه، وسيد أنبيائه ورسله، نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، **وبعد**:

فإن دور العلماء يبرز في النصح والتوجيه، وتسديد مسيرة الأمة، والسعي لتربية المؤمنين وتزكيتهم، فهم المزكون بتزكية المولى جل شأنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ثم إنهم المؤتمنون على نصرة الشريعة ورفع رايتها، وتبليغ الناس ما أمر به الله جل جلاله ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

يصححون الاعتقاد، ويقوِّمون السلوك، ويرصّون الصفوف، ويقدمون المعروف، ويحققون التوازن، ويسددون المسيرة، ويليِّنون القلوب، ويتقدمون بالقدوة نحو الخير والحق.

ولعظيم تكاليفهم، عظمت مؤهلاتهم، ليتولوا قيادة الأمة، وشرف الإنصات إليهم والنزول عند رأيهم ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال بعض السلف: الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك، وهذا ما عبّر عنه الشاعر بقوله:

إن الأكابر يحكمون على الورى
وعلى الأكابر يحكم العلماء

والعلماء ورثة الأنبياء.

لذا فهم يتحملون المشاق والمصاعب، ويصبروا على كثير من الأذى، دون أن يهونوا أو يستكينوا.

ومهما توسعت الدنيا في فتنتها، وانصرف الناس إلى أرباب الهوى والشهرة. يبقى للعلماء صوت الحق، ونور الفضيلة، والقدوة التي لا تتزيف، والموقف المشهود الذي لا ينسى.

وما بين أيدينا هو نموذج لأدوار العلماء في التعليم والتوجيه، والنصح والتزكية، لعالم من علماء هذا العصر، وأحد حفاظها الأكابر، ومجاهديها المناضلين، ودعاتها الوسطيين.

جمع الله تعالى له التمكين في الحفظ، وحسن التفهيم والتعليم، والموسوعية في العلوم والمعارف، والمشاركة في

المؤتمرات والمحافل العلمية والثقافية العامة.

ومن جهوده الكبيرة المباركة، وضمن سلسلة المشروعات التي نقدمها لطلاب الشيخ ومحبيه، المجموعة الكاملة لمحاضرات العلامة الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي، والتي ستخرج تباعًا بإذن الله.

ونقدم اليوم المجموعة الأولى التي تحتوي على موضوعات ثلاثة، وهي:

كيف نعمل للإسلام، مقومات الشخصية الإسلامية، التوازن والاعتدال في حياة المسلم.

وقد قمت وبمشاركة الإخوة في المكتب العلمي بمعهد مكة المكرمة بجدة بتفريغ هذه المحاضرات، وتخريج أحاديثها، وتنسيق موضوعاتها.

كما أضفت بعض الفقرات الجانبية المكملة والمجملة لكل موضوع، ونسقت (من حذف وإضافة) ما وفقني الله إليه في كل الموضوعات، نظرًا لطبيعة إلقاء المحاضرات، والتي لها نسق خاص عند العلامة الشيخ محمد الحسن الددو ـ حفظه الله ـ من توارد الأفكار، وتنوع التقسيم، وكثرة الاستشهاد.

وإن كانت هذه المجموعة أصلها من المحاضرات إلا أنها في الحقيقة ثروة كبيرة، ونهر متدفق، مما فتح الله به

على الشيخ من حفظه وفهمه ووعيه، من التكامل في الفقرات، والاعتدال في الطرح، والكم الكبير من النصوص والاستدلالات والتحقيقات.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك في عمر الشيخ وعلمه، وأن يرزقنا والإخوة القراء الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعلنا من العلماء العاملين، والقادة الفاتحين، على منهج الحق المبين، وأن يبلغنا ما يرضيه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه المعتني بالكتاب
د. علي بن حمزة العُمري
الصين ـ مقاطعة تشنغهاي
٢٠/٥/١٤٣٠هـ
www.alomarey.net
email: Ali@4shbab.net

كيف نعمل للإسلام؟

النـهر nhr-azb

كيف نعمل للإسلام؟

● لا ينقص الدين وأنا حي

فلا شك أن المؤمنين جميعًا يحبون الله ورسوله، ويحبون دين الله (سبحانه وتعالى) الذي جاء به رسول الله ﷺ، لكن هذه المحبة تقتضي عملاً؛ لأنها إذا لم تُجسَّد في عمل كانت مجرد هوى، لا يترتب عليه أي شيء ولا أثر؛ فلذلك علينا أن نسأل أنفسنا عن هذا الدين؛ الذي جاءنا به رسول الله ﷺ، وبلّغه قطعًا، وشهد الله له بالبلاغ، وأداه على أحسن تأدية، فلا نستطيع أن نقول ـ بين يدي الله ـ: ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ لذلك علينا أن نجسد قناعتنا هذه، ومحبتنا، في عمل يرضي ضمائرنا، ويكون هذا العمل ذا أثر في نصرة الله ورسوله.

فقد شرط الله علينا نصرة الله، ونصرة رسوله، ونصرة هذا الدين؛ الذي جاء به، وحضنا على ذلك حضًّا

بليغًا، فقال (سبحانه وتعالى): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٣٨ ـ٤١] وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨]، فإن الله (سبحانه وتعالى) ابتلاكم ببعثة محمد ﷺ إليكم، وبهذا الدين الذي جاء به، وابتلاه هو ﷺ بتبليغه، أما هو فنجح في الامتحان قطعًا، وأما أنتم فإنما تعلن النتائج يوم القيامة، عندما ينادي المنادي ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس:٥٩]، فلنجتهد جميعاً في النجاح.

وتذكروا أن النبي ﷺ قال، فيما روى عنه عياض بن حمار المجاشعي[1]، في صحيح مسلم، قال: «**أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حلالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»[2].

وفي شرح النووي لمسلم قال: قَوْله (سبحانه وتعالى): «**إِنَّمَا بَعَثْتُك لِأَبْتَلِيَك وَأَبْتَلِي بِك**».

مَعْنَاهُ: لأَمْتَحِنك بِمَا يَظْهَر مِنْك مِنْ قِيَامك بِمَا أَمَرْتُك بِهِ مِنْ تَبْلِيغ الرِّسَالَة وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الْجِهَاد فِي اللَّه حَقّ جِهَاده، وَالصَّبْر فِي اللَّه (تَعَالَى) وَغَيْر ذَلِكَ، وَأَبْتَلِي بِك مَنْ أَرْسَلْتُك إِلَيْهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُظْهِر إِيمَانه، وَيُخْلِص فِي طَاعَاته، وَمَنْ يَتَخَلَّف وَيَتَأَبَّد بِالْعَدَاوَةِ وَالْكُفْر، وَمَنْ يُنَافِق، وَالْمُرَاد أَنْ يَمْتَحِنهُ لِيَصِيرَ ذَلِكَ وَاقِعًا بَارِزًا، فَإِنَّ اللَّه (تَعَالَى) إِنَّمَا يُعَاقِب

---

(١) هو عياض بن حمار: ابن أبي حمار بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي المجاشعي، نسبه خليفة وغيره، حديثه في صحيح مسلم وعند أبي داود والترمذي عنه حديث آخر أنه أهدى إلى النبي ﷺ قبل أن يسلم فلم يقبل منه، وسكن البصرة.
وروى عن النبي ﷺ... الإصابة في معرفة الصحابة (٢/٣٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجنة ونعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم (٢٨٦٥).

الْعِبَاد عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُمْ، لاَ عَلَى مَا يَعْلَمهُ قَبْل وُقُوعه، وَإِلاَّ فَهُوَ (سُبْحَانه) عَالِم بِجَمِيعِ الْأَشْيَاء قَبْل وُقُوعهَا، وَهَذَا نَحْو قَوْله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

أَيْ: (نَعْلَمهُمْ فَاعِلِينَ ذَلِكَ مُتَّصِفِينَ بِهِ)[1]، فقد ابتلاكم الله بهذه الرسالة؛ التي جاء بها النبي ﷺ، لكن من لطف ربكم بكم أنه لم يبتلِكُم بما يتعارض مع مقتضيات عقولكم، أو ما يتعارض مع مصالحكم، أو ما يتعارض مع فطركم، بل كل ما جاء به الرسول ﷺ موافق للعقل، موافق للمصلحة، موافق للفطرة، وهذا من لطف الله (سبحانه وتعالى) اللطيف الخبير؛ الذي يعلم السرائر، فلم يمتحنكم بما تعيا عقولكم به، وإنما امتحنكم بما يوافقها ويوافق فطركم، لكن مع ذلك سلط عليكم الأهواء، وجعل الإنسان في مواجهة دائمة، مع خمس جبهات مفتوحة.

● جبهات ومعارك

(**الجبهة الأولى**): جبهة الشيطان؛ الذي هو أول عدو للإنسان، يقول الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]،

(١) شرح النووي على مسلم (٩/٢٤٧).

وهذه الآية جمعت بين خبر وأمر، فالخبر صدق، والأمر لا بد أن يطبق، فهو حق، وكثير من الناس يقتصر على تصديق الخبر دون تطبيق الأمر، فلا يجد نفسه في يوم من الأيام يقف موقفًا معاديًا فيه للشيطان.

(**الجبهة الثانية**): هي جبهة النفس الأمارة بالسوء؛ التي تسعى للتطفيف، بأن تأخذ كل حقوقها، ولا تؤدي إلى الناس حقوقها.

(**الجبهة الثالثة**): جبهة الأهل والأولاد، ومفاتن هذه الدنيا، وما فيها من المنافع، وهي جبهة عظيمة، كذلك الإنسان بها عرضة للفتنة ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن: ١٤].

(**الجبهة الرابعة**): إخوان السوء؛ الذين يشغلون الإنسان عن طاعة الله، فيزينون له معصيته، ولا يعينونه إذا ذكر، ولا يُذكِّرُونه إذا نسي.

وإخوان الإنسان ثلاثة أقسام:

(**القسم الأول**): إخوان كالغذاء، لا يستغني الإنسان عنهم أبدًا، وهم الذين يعينونه على أمر الدين.

(**القسم الثاني**): إخوان كالدواء، يحتاج إليهم الإنسان في بعض الأحيان، فإذا احتاج إليهم لم يسد غيرهم مسدهم، وهؤلاء هم الذين يعينونه على أمور الدنيا.

(**القسم الثالث**): إخوان كالداء، لا يعينون الإنسان على أمور الدين، ولا على أمور الدنيا، فيشقى بهم زمانًا، يشغلونه، ويصدونه عن طريق الحق، والله يبتلي الإنسان بهؤلاء عندما يُعرض عن ذكره، فقد قال الله (سبحانه وتعالى): ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٧]، ومع ذلك فهم الأعداء يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]، ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

(**الجبهة الخامسة**): هذه الدار؛ التي هي دار الغرور، ونحن فيها، فتشغلنا مفاتنها وشهواتها وحظوظها عن استعمال ما آتانا الله في طاعته، وعن إيثار الآخرة على الدنيا، والمغبون من آثر هذه الدار الفانية؛ التي كل ما فيها تعب ونكد، وأحسن ما فيها إلى الزوال، وهي عرض سيال، ودوام الحال من المحال، المغبون من آثرها على الآخرة الباقية الخالدة؛ التي أعد الله فيها لأوليائه ما لا عين رأت،

ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإن الإنسان الذي يكابد، ويجاهد، في هذه الجبهات الخمس، عليه أن يعلم أن توجيهات ربه إليه؛ التي جاء بها الرسول ﷺ تنقسم إلى قسمين:

(**القسم الأول**): إلى أعمال خاصة، هو فيها على نفسه بصيرة، وتُبلَى هذه الأعمال يوم تُبلى السرائر، وهي مثل طهارته، وصلاته، وصيامه، ونفقة أهله، والقيام عليهم، وقضاء ديونه، وأداء أماناته وحقوقه.

(**القسم الثاني**): القيام لله بالحق في الأرض، فإن الله جعل هذا الجنس البشري خليفة في هذه الأرض؛ للقيام بالقسط والعدل، وقال في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

وهذه الخلافة في الأرض تقتضي من الإنسان أن يهتم بالأمر العام، وأن يسعى للعمل للتمكين لهذا الدين؛ لأنه قناعته التي اقتنع بها، وما من إنسان يقتنع قناعة إلا سعى من أجل تطبيقها، فمن اقتنع بأنّ عليه أن يكون عالمًا من العلماء فسيسهر الليالي، ويتعب غاية التعب، في حفظ المتون والنصوص، ومذاكرتها ومدارستها، والذي اقتنع بأن يكون غنيًّا من الأغنياء سيباكر للصفقة في الأسواق، ويجمع المال بالدوانيق، ومن اقتنع بأن عليه أن يقطع مسافة معينة، فسيبذل

الجهد، ويستعمل الرواكب والمراكب لقطع تلك المسافة، ومن اقتنع بصدق ما جاء به النبي ﷺ، وأنه سيسأل بين يدي الله: ماذا قدم من أجل التمكين بهذا الدين، ويعلم بأنه سيسأل عنه في قبره، عندما يأتيه الملكان، كما في الحديث:

«وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حِينَ يُقَالُ لَهُ يَا هَذَا، مَنْ رَبُّكَ؟، وَمَا دِينُكَ؟، وَمَنْ نَبِيُّكَ؟»[1].

وفي رواية: **«مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ»**[2]؟، ويعلم ـ كذلك ـ أنه سيُعرض على الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠]، سيعرض على الله ويسأله: أليس هذا الدين الذي جاء به النبي ﷺ،

---

(١) أخرج نحوه مسلم في صحيحه: كتاب الجنة ونعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه، وإثبات عذاب القبر، والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٠)، (٢٨٧١). وأخرجه أبو داود في سننه: كتاب السنة، باب المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣). وأخرجه الترمذي في سننه (٣٠٤٥)، قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. والنسائي (١٩٤/٧). وابن ماجه (٤٢٥٩). وأحمد (١٧٨٣٧). والحاكم (١١٠/١) من طريق شُعْبَةُ أَخْبَرَنِي عَلْقَمَةُ بْنُ مَرْثَدٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ عُبَيْدَةَ يُحَدِّثُ عَنْ الْبَرَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: فذكره، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب السنة، باب المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣). وأحمد (١٧٨٠٣). وابن أبي شيبة (٢٥٦/٣). والطبري في تهذيب الآثار (٢١٣/٢). والطيالسي في المسند (٧٨٢) من طريق الْأَعْمَشُ عَنْ مِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ زَاذَانَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ مرفوعًا به.

وهذا الوحي الذي أخبر به بالحق، فسيقر على نفسه ويشهد، وتزول الأعذار كلها في ذلك اليوم، ليس فيه شيء من المعاذير الدنيوية؛ التي يجعلها الإنسان بين يديه، في هذه الدنيا ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦].

إذا كانت هذه القناعة راسخة لديك، بأن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق، فاعلم أن هذه القناعة لا يمكن أن تستقر، ولا أن تثبت في تصورك وقلبك، إلا بعمل من أجل ترسيخها، وأول عمل تعمله هو الانتماء لهذا الدين؛ الذي جاء به الرسول ﷺ، فإن الناس يوم القيامة يُنادَون بأئمتهم ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١]. فاحذر ـ يا أخي ـ أن تُدْعَى بإمام غير رسول الله ﷺ يوم القيامة، إن الذين ينتمون إلى الزعماء وأصحاب الأيديولوجيّات سيُحشرون تحت ألوية زعمائهم، ويُنادَوْن بأسمائهم، ومن المؤسف أن يكون إنسان سماه أبوه محمدًا، أو عبدالله، أو عبدالرحمٰن، يبعث تحت لواء كارل ماركس، يوم القيامة، أو لواء ميشيل عفلق، أو غيرها من الألوية المخالفة للواء محمد ﷺ.

إن المطلوب أن يُبْعَث الإنسان تحت لواء الحمد؛ الذي يحمله رسول الله ﷺ يوم القيامة، فمن بُعِث تحت هذا اللواء لم يُخْزِه الله في الملأ الأعلى، بل سينور الله وجهه، ويعطيه

كتابه بيمينه، تلقاءَ وجهه، ويرفع منزلته في الآخرين، إنها المنزلة العظيمة؛ التي بالإمكان أن يسعى لها كل واحد منا في هذه الدنيا، وما ذلك إلا بتحقيق الانتماء لهذا الدين؛ الذي جاء به النبي ﷺ، وجعله أولوية، سابقًا على كل ما سواه.

إن هذا الدين لا يرتضي لأصحابه مجرد المساواة بين خدمة الدين وخدمة الأهداف الأخرى، بل لا بد أن يكون الدين مقدمًا، فآكد ما لدى الإنسان حياته، ولا بد أن يبذلها في سبيل الدين ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]؛ ولذلك طلب المؤمنون الشهادة في سبيل الله، وعرفوا أنها من أعلى المنازل، بعد النبوة والصديقيّة، كذلك مال الإنسان؛ الذي يملكه، وينعم به في هذه الحياة الدنيا، يقدمه طائعة به نفسه؛ لينال به الانتماء لهذا الدين، وقد أخذ الله البيعة على ذلك، فقال: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

● قد بعتها لله

إن الانتماء لهذا الدين يقتضي من الإنسان إخاءً للمؤمنين، وحرصًا عليهم، وسعيًا لتكثير سوادهم، فكل من

انتسب إلى حزب من الأحزاب، لا بد أن يسعى من أجل التمكين لذلك الحزب، وزيادة أفراده، وإلا كان انتسابه باطلاً، ولم يكن لديه انتماء حقيقي للحزب، فالذي انتسب إلى حزب الله، وانتسب إلى رسول الله ﷺ، لا بد أن يسعى لتكثير أتباع النبي ﷺ في الأرض، وتكثير سوادهم، ولا بد أن يسعى للتمكين لهذا الدين، في أرض الله، أن يعبد الله في هذه الأرض كما يرتضي، ولذلك تسره عبادة الله من أي شخص صدرت، فيحب جبريل وميكائيل؛ من أجل أنهما يعبدان الله حق عبادته، ويحب أولياء الله أيًّا كانوا؛ من أجل أنهم يعبدون الله حق عبادته، فكل من عبد الله على الوجه الذي يرضيه يحبه غاية المحبة؛ لأنه يقوم بالعمل الذي يريد هو القيام به، ويشركه في الهدف، ويساعده في الوصول إلى مبتغاه ومراده.

لذلك، فلا بد أن يفهم كل إنسان منّا أن عليه أن يسعى لتكثير أتباع محمد ﷺ، وزيادة سوادهم، وأن يسعى لرفع راية هذا الدين، لو كلفه ذلك ما كلفه، فإن ما كلفه مخلوف عليه مردود، إن الذي يبذله الإنسان في مرضاة الله (سبحانه وتعالى)، وإعلاء كلمته، وإعزاز دينه، مخلوف، ولهذا قال عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ: (أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالاً، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ، إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»، قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ

بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»، قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا)[1]، فأخلفه الله ما أعطى.

فالذين بذلوا أنفسهم لله (تعالى)، فجاهدوا حتى استُشهدوا في سبيل الله، لم يذوقوا من مرارة الموت إلا قَدْرَ القَرْصَة، أي إلا شيئًا أقل من وخز الإبرة، ويُغفَر للشهيد عند أول قطرة تقطر من دمه، ويُجْرَى عليه رزقُه، ويأمن الفتَّان، ويحيا في قبره حياة برزخية، لا يتمنى فيها شيئًا إلا الرجوع إلى الدنيا؛ لعله يستشهد - مرة أخرى - في سبيل الله؛ ولذلك، فإن النبي ﷺ؛ الذي أعلى الله منزلته على العالمين جميعًا، وجعله أفضل خلقه، وأكرمهم عليه (سبحانه وتعالى)، تمنى أن يُقتل في سبيل الله، ثم يحيا، ثم يقتل، ثم يحيا، ثم يقتل، كما

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٩) ورواه الترمذي في سُننه: كتاب المناقب، رجاؤه ﷺ أن يكون أبو بكر ممن يدعى من جميع أبواب الجنة، رقم (٣٦٧٥)، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. والدارمي (١٧١٣) والحاكم (٣٩/٤) والبيهقي (١٨١/٤) من طريق الْفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا: فذكره.
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (١٧٩/٤): صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالْحَاكِمُ، وَقَوَّاهُ الْبَزَّارُ، وَضَعَّفَهُ ابْنُ حَزْمٍ بِهِشَامِ بْنِ سَعْدٍ، وَهُوَ صَدُوقٌ.

في الصحيحين، عن أَبي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ:

سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلاَ أَنَّ رِجَالاً مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ**»[1]، وما ذلك إلا لما علِمه النبي ﷺ، من فضل التضحية في سبيل الله، والبذل.

إن الانتماء لهذا الدين، والانتساب له، يقتضي من الإنسان الحرص على الناس، والسعي لهدايتهم، وإرشادهم إلى طريق الحق، والتزامهم به، وأن يكون عونًا لهم على الشيطان، وعونًا لهم على النفس، وعونًا لهم على الهوى، وعونًا لهم على إخوان السوء، وعونًا لهم على مفاتن الدنيا، وأن لا يعين الشيطان على إخوته، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ، قَالَ: «**اضْرِبُوهُ**»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، قَالَ: «**لاَ تَقُولُوا هَكَذَا، لاَ تُعِينُوا عَلَيْهِ**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب تمني الشهادة، رقم (٢٧٩٧)، ومسلم في صحيحه: كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه).

الشَّيْطَانَ»[1]، وقال ﷺ: «**إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ**»[2].

فمن كان يريد تكثير السواد، وجمع الكلمة، وجمع الناس على طريق الحق، لا يمكن أن يكون من قطاع الطريق؛ الذين يقطعون طريق الهداية على الناس، فيكونون فتنة عليهم، ويحولون بينهم وبين الاستمرار على طريق الحق، نحن نعلم أن طريق الحق شاقّ، وأن عليه عقبات سيتساقط عنها أقوام كثر، فكثير من الأقوام لا يقصدون أصلاً، ولا يريدون، ليست لديهم إرادة الهداية، ثم كثير من المريدين لا يقصدون، أي: لا يجدّون في الوصول، ثم كثير من القاصدين لا يستمرون، بل يتساقطون.

فلذلك قلَّ من قصد، ثم قلَّ من أراد، ثم قلَّ من قصد ثم قلَّ من بلغ، وذلك أن الله جعل على طريق الجنة عقبات، تصرف أقوامًا عن طريق الحق، فقد تعهد بذلك، في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال، رقم (٦٧٧٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأذان، باب تخفيف الإمام في القيام، وإتمام الركوع والسجود رقم (٧٠٢)، ومسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، رقم (٤٦٦)، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاَةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلاَنٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا، قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَطُّ أَشَدَّ غَضَبًا فِي مَوْعِظَةٍ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ**...» فذكره.

ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وكما قال (تعالى): ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٦ ـ ٤٧]، فأولئك الأقوام الذين لا يرتضيهم الله لخدمة الدين يصرفهم بالصوارف، ويجعل في وجوههم العقبات والنكبات، فينكفئون على أدبارهم، ويرتدون على أعقابهم، كما قال (تعالى): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

ثم إن الذين ينتمون إلى هذا الدين يبحثون دائمًا عن طرق تطوير خدماتهم، وعن طرق حض أنفسهم على التضحية في سبيله، فهم في الجبهات السابقة، في منافسة دائبة دائمة، يريدون الانتصار على النفس، والانتصار على الشيطان، ويريدون التقدم في الصفوف الأمامية، حتى يقول: ﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: ٨٤]، وبذلك، فإنهم يريدون دائمًا أن يسمعوا كلمة تثبتهم على طريق الحق، أو أن يقرأوا سطرًا واحدًا ينير لهم الطريق

أمامهم، أو أن يروا شخصًا واحدًا من المهتدين يقتدون به، أو أن يقرأوا سيرة شخص من الثابتين؛ ليتثبتوا بذلك، ويثبتوا، وقد قال الله (تعالى): ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]، وقال عبدالله بن المبارك (رحمه الله): «سير الصالحين جند من جنود الله، يثبت الله به قلوب عباده»، ومصداق ذلك من القرآن هذه الآية ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠] فلهذا إذا رأوا عنوانًا، هو: كيف نعمل للإسلام بادروا إليه؛ لأنهم يعلمون أن عليهم أن يعملوا للإسلام، وهم مقتنعون بذلك، لكن يبحثون عن بداية الطريق، من أين نبدأ في خدمتنا لدين الله، وانتمائنا لرسول الله ﷺ؟

● الطريق الطويل

إنهم حينئذ يطرحون سؤالين، في بداية الطريق:

السؤال الأول: هل أيام رسول الله ﷺ وحروبه قد توقفت عند الحد الذي يذكره أهل السير، أم إن كل يوم من أيامنا هو يوم بدر، ويوم أحد، ويوم حنين، ويوم الأحزاب، ويوم خيبر؟

والجواب: هو أن كل يوم من أيامنا هو معركة من معارك الإسلام، ما من يوم يمر إلا والصراع فيه على أشده،

بين الحق والباطل، ولو توقف ذلك الصراع لحظة واحدة لفسدت الأرض، كما قال (تعالى): ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، لولا هذا الدفاع المستمر، دفاع الله الناسَ بعضَهم ببعض، لفسدت الأرض؛ لأنه لو تغلب الحق على هذه الأرض فلم يبقَ باطل، لم يبقَ للدنيا معنى؛ لأن الدنيا دار امتحان لا جزاء، ولو تغلب الباطل على الرضا لجاء سخط الله الماحق؛ الذي يهلك الأرض ومن عليها، وما أهون الأرضَ على الله إذا عصاه أهلها، فلو كشف الحجاب لحظة واحدة لأحرقت سبُحات وجهه السماوات السبع، والأرض، ومن فيهن (سبحانه وتعالى).

فلذلك، فإن هذا السؤال جوابه واضح، ينبغي أن يستحضره كل إنسان منا، إنك ـ يا أخي ـ تحب الدفاع عن النبي ﷺ، وتتمنى لو كنت في زمانه حتى تجاهد بين يديه، حتى تكون من شهداء بدر، أو من شهداء أحد، أو من المبايعين تحت الشجرة، لكنّ الفرصة ما زالت متاحة أمامك، والباب ما زال مفتوحًا على مصراعيه، وأيام النبي ﷺ مستمرة، كيف ذلك؟، إن الناس لم يحاربوه ﷺ على أساس خَلْقه، ولا على أساس خُلقه، ولا على أساس نسبه، فهو أكرم الناس نسبًا، وهو أحسنهم خَلقًا وخُلقًا، وهو أكرمهم وأشجعهم، وأكثرهم أمانة وصدقًا وعدلاً، فلماذا حاربوه؟، ما حاربوه إلا على أساس الدين الذي جاء به، ونحن لم

نفقد شيئًا مما جاء به إلا شخصه ﷺ، وليس هو محل الحرب، بل محل الخلاف الناس الذين يحاربون الدين، لا يحاربون شخص النبي الكريم ﷺ.

ولذلك، فالمنحرفون من المتأخرين كثير منهم يتعلقون بشخصه، ويردون دينه، حتى إن اليهود في زمانه كانوا يحبون شخصه، ويُعجبون به، لكنهم يردون دينه، وكذلك النصارى، نصارى نجران الذين أتوه قالوا: (لقد علمتم إنه لم يأتِ قومٌ قط نبيًّا إلا أهلكوا، وإنكم لتعلمون إنه لنبي)[1]، والمنافقون كانوا إذا أتوه قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، فليس شخصه محلا للخلاف، شخصه محبوب لدى كل من رآه، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص قَالَ: شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَجَاءَتْهُ وُفُودُ هَوَازِنَ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا أَصْلٌ وَعَشِيرَةٌ، فَمُنَّ عَلَيْنَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِنَا مِنْ الْبَلَاءِ مَا لاَ يَخْفَى عَلَيْكَ، فَقَالَ: «**اخْتَارُوا بَيْنَ نِسَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ**»، قَالُوا: خَيَّرْتَنَا بَيْنَ أَحْسَابِنَا وَأَمْوَالِنَا نَخْتَارُ أَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: «**أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ**»، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ، وَتَعَلَّقَ بِهِ النَّاسُ، يَقُولُونَ: اقْسِمْ عَلَيْنَا فَيْئَنَا بَيْنَنَا، حَتَّى أَلْجَئُوهُ إِلَى سَمُرَةٍ،

(١) في قصة وفد نجران ينظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم (٤٣٨٠)، (٤٣٨١)، (٤٣٨٢)، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه)، رقم (٢٤٢٠)، سيرة ابن هشام: ١/٥٧١ ـ ٥٨٣.

فَخَطَفَتْ رِدَاءَهُ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي، فَوَاللَّهِ لَوْ كَانَ لَكُمْ بِعَدَدِ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعَمٌ لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لاَ تُلْفُونِي بَخِيلاً وَلاَ جَبَانًا وَلاَ كَذُوبًا**»، ثُمَّ دَنَا مِنْ بَعِيرِهِ، فَأَخَذَ وَبَرَةً مِنْ سَنَامِهِ، فَجَعَلَهَا بَيْنَ أَصَابِعِهِ، السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، ثُمَّ رَفَعَهَا، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَيْسَ لِي مِنْ هَذَا الْفَيْءِ وَلاَ هَذِهِ إِلاَّ الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ، فَرُدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيطَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَارًا وَنَارًا وَشَنَارًا**»، فَقَامَ رَجُلٌ مَعَهُ كُبَّةٌ مِنْ شَعَرٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَذْتُ هَذِهِ أُصْلِحُ بِهَا بَرْدَعَةَ بَعِيرٍ لِي دَبِرَ، قَالَ: «**أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكَ**»، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَّا إِذْ بَلَغَتْ مَا أَرَى فَلاَ أَرَبَ لِي بِهَا، وَنَبَذَهَا[1]. فلم يحاربه الناس

---

(١) رواه أبو داود مختصرًا في سننه: كتاب الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال، رقم (٢٦٩٤)، أخرجه النسائي (٤٦٩/٨) وأحمد (٦٤٤١) والبيهقي في دلائل النبوة (٢٦٧/٥) من طريق محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: شهدت رسول الله ﷺ وجاءته وفود هوازن فقالوا: فذكره.
قال الهيثمي في المجمع (١٨٨/٦): رواه أحمد ورجال أحد إسناديه ثقات.
وللحديث شاهد عن جبير بن مطعم قال: بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين علقه الأعراب يسألونه، فاضطروه إلى سمرة، حتى خُطف رداؤه وهو على راحلته، فوقف فقال: «**ردوا علي ردائي، أتخشون علي البخل، فلو كان عدد هذه العضاه نعمًا، لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا جبانًا، ولا كذابًا**» أخرجه أحمد (١٦١٧٤) وابن حبان (٤٩١٠) من طريق معمر، عن الزهري، عن عمر بن محمد بن جبير بن مطعم، عن محمد بن جبير بن مطعم أن أباه أخبره، أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ: فذكره.

على أساس شيء من ذلك، إنما حاربوه على أساس الدين الذي جاء به، هل رُفع هذا الدين، هل نُسخ؟.

هو باقٍ غير مرفوع، وغير مبدل، وغير منسوخ، والحرب قائمة على هذا الدين، والناس اليوم يحاربون هذا الدين، منهم من يفتك فيه بالقنابل، ومنهم من يفتك بالدبابات، ومنهم من يقصف بالطائرات، ومنهم من لا يجد إلا معولاً، ومنهم من لا يجد إلا سكينًا، فهم تتفاوت عداوتهم للدين، ويتفاوت إفسادهم فيه، بقدر ما أوتوا من قوة شيطانية، فلذلك منهم الكفار، ومنهم المنافقون، ومنهم الفساق، والفساق يتفاوت فسقهم، وقد بين النبي ﷺ بأن الفساق بمثابة الذين يخرقون السفينة.

فقد أخرج البخاري في الصحيح، عن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جميعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جميعًا**»[1]، قوله: «**استهموا على سفينة**» أي:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم (٢٤٩٣). عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا).

اقترعوا في ركوب السفينة، والسفينة حوض متسع بعض الناس يركب في أعاليه وأطرافه، وبعضهم يكونون في قرارته ووسطه، وهو أسفله، فكان بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، يصعدون الدرج حتى يأخذوا من البحر، فيدخل الماء إلى السفينة، فقالوا: «**لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**»!.

فهؤلاء العصاة يأتون بمبرر أو بأمر مقنع، يقولون: نحن فقط نخرق في نصيبنا؛ لكي لا نؤذي من فوقنا، هذا أمر معقول، لكن الواقع أن غاية الأذى هو الخرق الذي يفعلونه، فالسفينة في عمق البحر، وإذا خرقت هلك كل من فيها وغرقت، فلذلك قال: فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا؛ لذلك هذه الحرب القائمة، على الإنسان فيها أن يعرف موقعه، وأن يحقق متمناه فقد كان يتمنى من قبل أن يجاهد بين يدي رسول الله ﷺ، وقد أتيحت له الفرصة الآن للجهاد.

تذكروا يا معشر الشباب أنس بن النضر (رضي الله عنه) عندما فاتته غزوة بدر فقال كما حكى ذلك أنس بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: غَابَ عَمِّي، أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ، عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا

أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ»، يَعْنِي أَصْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ، يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: «يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ، وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ»، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ ـ يَا رَسُولَ اللَّهِ ـ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ، وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلاَّ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ، وَفِي أَشْبَاهِهِ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣][1]، قال: ليرين الله ما أصنع، فجاهد حتى استُشهد، وبذلك أدرك ما فاته في غزوة بدر.

إنكم فاتتكم الغزوات السابقة في أيام النبي ﷺ، لكن أدركتم الغزوات اللاحقة، فاتتكم الغربة الأولى، وأدركتم الغربة الثانية، فأروا الله من أنفسكم خيرًا، وتذكروا قول النبي ﷺ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا،**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، رقم (٢٨٠٥). ومسلم في صحيحه: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٣). عَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»[1]، وفي رواية: «**طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»، فَقِيلَ: مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «**أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ**»[2].

وفي رواية: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»[3]،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين، رقم (١٤٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده من مسند عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) رقم (٦٣٦٢) والطبراني في الكبير (١٠٧/٢٠) برقم (١٤٥٧)، وابن المبارك في «الزهد» (١٩٠/٢) من طريق ابْنُ لَهِيعَةَ حَدَّثَنَا الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ سُفْيَانَ بْنَ عَوْفٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَنَحْنُ عِنْدَهُ: فذكره.
قال الهيثمي في المجمع (٢٧٨/٧): رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، وقال الهيثمي في موضع آخر في باب فضل الفقراء (٤٧٩/٤): وله ـ أي الطبراني ـ في الكبير أسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح، ولكن ابن لهيعة صحيح الحديث إذا روى عنه أحد العبادلة، ومنهم عبدالله بن المبارك وهذا الحديث من روايته عنه كما ترى وبه صح الحديث.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده من مسند سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) برقم (١٥١٨)، (٢٨/٤)، وفي مسند عبدالرحمٰن بن سنة (رضي الله عنه) رقم (١٦٠٩٤) (٣٤/٤)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١٩٦/١٣) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَنَّةَ (رضي الله عنه). وأخرجه الترمذي (٢٥٥٤) عن عَوْفِ بْنِ زَيْدِ بْنِ مِلْحَةَ. وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٤٨/٥) برقم (٥٧٣٤) عَنْ سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ. ورواه الطبراني عن أبي الدرداء (١٦٥/٧) برقم (٧٥٥٤)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (ق ٢/٢٣) عن جابر بن عبدالله. ورواه البيهقي أيضًا عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع. وقال الهيثمي =

. . . . . .

= في المجمع (٣١٣/٣)، باب فيمن لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبدالله بن صالح كاتب الليث وهو ضعيف وقد وثق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١٨/٤):

لا يَقْتَضِي هَذَا أَنَّهُ إذَا صَارَ غَرِيبًا يَجُوزُ تَرْكُهُ ـ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ بَلْ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ وَلا يَقْتَضِي هَذَا أَنَّهُ إذَا صَارَ غَرِيبًا أَنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِهِ يَكُونُ فِي شَرٍّ بَلْ هُوَ أَسْعَدُ النَّاسِ كَمَا قَالَ فِي تَمَامِ الْحَدِيثِ: «**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**». و«**طُوبَى**» مِنْ الطِّيبِ قَالَ تَعَالَى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ جِنْسِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ لِمَا كَانَ غَرِيبًا. وَهُمْ أَسْعَدُ النَّاسِ. أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَهُمْ أَعْلَى النَّاسِ دَرَجَةً بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ. وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أَيْ أَنَّ اللَّهَ حَسْبُك وَحَسْبُ مُتَّبِعِك. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾ وَقَالَ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۖ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾. فَالْمُسْلِمُ الْمُتَّبِعُ لِلرَّسُولِ: اللَّهُ تَعَالَى حَسْبُهُ وَكَافِيهِ وَهُوَ وَلِيُّهُ حَيْثُ كَانَ وَمَتَى كَانَ. وَلِهَذَا يُوجَدُ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ لَهُمْ السَّعَادَةُ كُلَّمَا كَانُوا أَتَمَّ تَمَسُّكًا بِالْإِسْلَامِ فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ شَرٌّ كَانَ بِذُنُوبِهِمْ؛ حَتَّى إنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ إذَا رَأَوْا الْمُسْلِمَ الْقَائِمَ بِالْإِسْلَامِ عَظَّمُوهُ وَأَكْرَمُوهُ وَأَعْفَوْهُ مِنْ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَسْتَعْمِلُونَ بِهَا الْمُنْتَسِبِينَ إلَى ظَاهِرِ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ بِحَقِيقَتِهِ لَمْ يُكْرِمْ. وَكَذَلِكَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ.

كذلك تذكروا أنكم إذ فاتتكم الصحبة ينبغي ألا تفوتكم الأخوة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**» قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»، فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟**»، قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ**»(١).

وجاء عن أنس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ إِخْوَانِي**»، قَالَ: فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَوَلَيْسَ نَحْنُ إِخْوَانَكَ؟، قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْنِي**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده من مسند أنس بن مالك (رضي الله عنه) برقم (١٢١١٩) والطبراني في الأوسط (٥٦٥٢) وأبو يعلى (٣٢٩٦) من طرق عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: فذكره. قال الهيثمي في المجمع (٦٦/١٠): رواه أحمد وأبو يعلى... وفي رجال أبي يعلى محتسب أبو عائذ وثقه ابن حبان وضعفه ابن عدي، وبقية رجال أبي يعلى رجال الصحيح غير الفضل بن الصباح وهو ثقة، وفي إسناد أحمد جسر وهو ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير محتسب. =

وعَنْ عُتْبَةَ بن غَزْوَانَ، أَخِي بني مَازِنِ بن صَعْصَعَةَ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الْمُتَمَسِّكُ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ كَأَجْرِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوْ مِنْهُمْ؟، قَالَ: «**بَلْ مِنْكُمْ**»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوْ مِنْهُمْ؟، قَالَ: «**لا، بَلْ مِنْكُمْ**» ثَلاثَ مَرَّاتٍ أَوْ أَرْبَعًا[1].

= وله شاهد من حديث أبي جمعة قَالَ: تَغَدَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ قَالَ: فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا أَسْلَمْنَا مَعَكَ وَجَاهَدْنَا مَعَكَ، قَالَ: «**نَعَمْ قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي**». أخرجه أحمد (**١٦٣٦٢**) والطبراني في الكبير (**١٢/٤**) والحاكم (**٣١٣/٤**) من طريق الْأَوْزَاعِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَسِيدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ قَالَ: حَدَّثَنِي صَالِحٌ أَبُو مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو جُمُعَةَ قَالَ: تَغَدَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فذكره. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وله شاهد آخر من حديث عمر نحوه. أخرجه أبو يعلى (**١٤٩**) ومن حديث ابن عباس. أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (**٤٥٢/٥**).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (**٤٤/١٢**) برقم (**١٣٧٣٦**) من طريق خَالِدُ بن يَزِيدَ بن صُبْحٍ، حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بن أَبِي عَبْلَةَ، عَنْ عُتْبَةَ بن غَزْوَانَ أَخِي بني مَازِنِ بن صَعْصَعَةَ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فذكره وأخرجه في الأوسط، باب من اسمه بكر، (**٢٠٩/٧**) برقم (**٣٢٣٩**). قال الهيثمي في المجمع (**٢٨٢/٧**): رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن شيخه بكر ابن سهل عن عبدالله بن يوسف وكلاهما قد وثق وفيهما خلاف. لكن له شاهد من حديث عبدالله بن مسعود مرفوعًا به. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (**١/٧٦/٣**) وآخر من حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعًا به.
أخرجه أبو داود (**٤٣٤١**) والترمذي (**٢٩٨٤**) وابن ماجه (**٤٠١٤**) قال الترمذي: هذا حديث حسن.

اجتهدوا في أن تكونوا من إخوان النبي ﷺ، إذ لم تكونوا من أصحابه. أنتم الآن قطعًا لستم من الأصحاب، فاجتهدوا أن تكونوا من الإخوان، إن من كان من إخوان النبي ﷺ له أجر خمسين من الذين سبقوا، والمزية لا تقتضي التفضيل، فالصحابة قطعًا أفضل من الإخوان، فأصحاب النبي ﷺ أفضل من إخوانه، لكن مع ذلك أجر المتأخرين أفضل؛ لأن الامتحان أشق في حقهم، فالصحابة بين ظهرانيهم النبي المعصوم، إذا اختلفوا في أي أمر كان موقف النبي ﷺ حاسمًا.

وإخوان النبي ﷺ ليس بينهم أحد معصوم، فإذا اختلفوا حصلت الأخطاء الاجتهادية، كحال العاملين للإسلام اليوم، لو كان بينهم نبي معصوم لحسم الخلاف، لكن من شدة امتحان الله لهم أن لم يجعل بينهم معصومًا، والله كان قادرًا على أن يعمر النبي ﷺ عمر هذه الأمة، لكنه قبضه بعد أن أتم ثلاثًا وستين سنة، بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة ونصح الأمة، فقبضه الله إليه، واختار له الرفيق الأعلى، وأكرمه (سبحانه وتعالى) بجواره، فبقي الامتحان أشق على الذين لم يلقوه، ولم يروه، ولم يسعَوا معه في إقامة دولة الإسلام، فالامتحان للاحقين ـ الذين يسعون لإقامة دولة الإسلام، دون أن يكون بين ظهرانيهم الرسول الكريم ﷺ ـ امتحان أشق وأعظم.

● الراية البيضاء

ثم **السؤال الثاني** هو: من أين نبدأ في نصرة النبي ﷺ؟ وقد علمنا أن الحرب الشعواء القائمة اليوم، إنما هي حرب على شخص النبي ﷺ، فإذا رأينا اعتداءات متكررة على المسلمين، وعلى الدين، فإنما هي اعتداءات على شخص النبي ﷺ، كأن الناس يرجمونه في الشوارع بالحجارة وأنتم تتفرجون وتنظرون، لكن بماذا تستطيعون الدفاع عنه، ومن أين تبدأون؟.

الجواب: هو قول الله (تعالى): ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦]. لن تنصروه إلا بمثل ما فعل هو، فهو الذي نصر الله، ولن يصلح الله آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

نحن نعلم علم اليقين أنه لن يخرج على الناس في مغامرة خائبة خاسرة، فيرفع سيفه في وجه أهل الباطل فيقتل؛ لأنه لم يُقدِم على مغامرة قط، ونعلم قطعًا أنه لن يغلق عليه غرفته، ويأخذ سبحته، ويهجر الناس؛ لأنه رسول تغيير، ونعلم قطعًا أنه لن يغرق مع الناس في الربا والمحرمات والفواحش؛ لأنه معصوم، ماذا سيعمل إذًا؟، قطعًا ندين الله بأنه لو خرج فينا الليلة لقال: من أنصاري إلى الله، ولاستجاب له أنصار الله، وحينئذ سيبدأ بتربيتهم وتكوينهم، حتى يتحلوا بصفات المؤمنين، ويتركوا صفات

المنافقين، وسيزداد عددهم، فكل إنسان منهم يسعى لتكثير الثواب، وحينئذ سيكاثرون أهل الباطل، حتى لو لم تقم حرب، ولو لم يقم جهاد بالسلاح فسيقوم الجهاد بالإقناع والمجادلة الحسنة والدعوة إلى الله، وحينئذٍ سيزداد سواد أنصار الله وسيتقلص الباطل حين يدمغه الحق فإذا هو زاهق.

وليست المنافسة على المال ولا على السلطان ولا على الجاه، فالمنافسة بين حزب الله وحزب الشيطان إنما هي على الناس، فحزب الله يريدون هداية أكبر قدر ممكن من البشر، وحزب الشيطان يريدون إغواء أكبر قدر ممكن من البشر؛ لأن الشيطان أقسم بعزة الله ليغوينَّهم أجمعين، ولم يستثنِ من ذلك إلا المخلصين من عباد الله، فحزبه يسعى لتحقيق يمينه، يخافون أن يحنث وليهم الشيطان، وحزب الله يسعون لإعلاء كلمته، ولاستجابة الناس إلى دعوته، فهو يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه؛ فلذلك يريدون الاستجابة إلى دعاء الله (سبحانه وتعالى)، ويريدون تكثير عباده (سبحانه وتعالى) وأوليائه.

ومن هنا فإن عليكم أن تفعلوا ما اقتنعتم بأن النبي ﷺ لو كان حيًّا بين ظهرانيكم لفعله، ومن لم يفعله منكم فقد رغب بنفسه عن رسول الله ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ

ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١]، ثم قال بعدها: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

هذه الآية يغفل عنها كثيرًا من الدعاة، وكثير من المتدبرين، إنها آية عظيمة تحمل كل إنسان المسئولية، إذا كنت يا أخي لا تستطيع الخطابة على المنبر، ولا تستطيع التعليم في الدروس، ولا تستطيع أن تكون طالبًا للعلم، ولديك مال، فساعد به، إذا كنت لا تستطيع شيئًا من ذلك، ولديك أسرة فحافظ عليها، وإذا كنت لا تستطيع شيئًا من ذلك، وتستطيع إنكار منكر فافعل، وإذا كنت لا تستطيع شيئًا من ذلك، وتستطيع تكثير السواد بمجرد حضور حشود الإسلام وإظهار شرائعه وشعائره فافعل، فلا يُعذَر أحد بأية نصرة يستطيعها، قلت تلك النصرة أو كثرت.

ومن هنا يتكامل أمر المؤمنين، فمن يستطِع الفعل يفعل، ومن يستطِع القول يقُل، ومن لا يستطع الفعل ولا القول يكثر السواد ويشهد، كما أمر النبي ﷺ في حديث أُمِّ

عَطِيَّةَ، قالت: (أُمِرْنَا أَنْ نَخْرُجَ فَنُخْرِجَ الْحُيَّضَ وَالْعَوَاتِقَ وَذَوَاتِ الْخُدُورِ قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: أَوْ الْعَوَاتِقَ ذَوَاتِ الْخُدُورِ فَأَمَّا الْحُيَّضُ فَيَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَدَعْوَتَهُمْ وَيَعْتَزِلْنَ مُصَلَّاهُم)[1]. أمر بإخراج العواتق، والحيض وربات الخدور، يشهدن الخير، ويكثرن سواد المسلمين، إنهن لا يستطعن جهادًا ولا قتالاً، ولن يدخلن المصلى، بل أمر باجتناب الحيض المصلى، لكن مع ذلك يزدن السواد؛ حتى يكون ذلك رعبًا في قلوب المنافقين، والمشركين، واليهود، والنصارى، هذه حكمة الرسول الحكيم الكريم ﷺ.

وأنتم الآن أحوج ما تكونون لمثل هذا العمل المشترك؛ الذي تتعاونون فيه على البر والتقوى، فالمرأة تقوم برعاية أولادها، وتربيتهم على المنهج الصحيح، وتربيهم على محبة الله ورسوله، والسعي لنصرة دينه، كما فعلت الخنساء[2]

(١) أخرجه البخاري عن أُمُّ عَطِيَّةَ (رضي الله عنها) في صحيحه: كتاب الحيض (الوضوء)، باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين، ويعتزلن المصلى، رقم (٢٣٤)، (٩٨١)، ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى، وشهود الخطبة مفارقات للرجال، رقم (٨٩٠).

(٢) هي خنساء بنت عمرو بن الشريد الشاعرة السلمية. وهو الشريد بن رباح ابن ثعلبة بن عصمة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم. قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم فذكروا أن رسول الله ﷺ كان يستنشدها فيعجبه شعرها، وكانت تنشده وهو يقول: «**هيه يا خناس**». أو يومي بيده. قالوا: وكانت الخنساء في أول أمرها =

بأولادها؛ حيث حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فذكرتهم بموعظتها، وتحريضهم على القتال، وعدم الفرار وفيها: إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وإنكم لبنو أبٍ واحد وأم واحدة، ما هجنت آباءكم، ولا فضحت أخوالكم، فلما أصبحوا باشروا القتال واحدًا بعد واحد حتى قتلوا، وكل منهم أنشد قبل أن يستشهد رجزًا، فأنشد أحدهم:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة
قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
بمقالةٍ ذات بيانٍ واضحة
فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة
من آل ساسان كلابًا نابحة[1]

والرجل يقوم برعاية أهل بيته، فإن كان لا يستطيع إصلاح الجيران على الأقل يغلق بابه على أهله، فيصلحهم،

= تقول البيتين والثلاثة، حتى قتل أخوها لأبيها وأمها، معاوية بن عمرو، قتله هاشم وزيد المريان، وصخر أخوها لأبيها، وكان أحبهما إليها؛ لأنه كان حليمًا جوادًا محبوبًا في العشيرة، وكان غزا بني أسد فطعنه أبو ثور الأسدي، فمرض منها قريبًا من حول، ثم مات فلما قتل أخواها أكثرت من الشعر، وأجادت، وأجمع أهل العلم بالشعر أنه لم يكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها، وقالوا: اسم الخنساء تماضر. الاستيعاب لابن عبدالبر (٢/٩٠).

(١) الإصابة في معرفة الصحابة (٣/٤٧٧) والوافي بالوفيات (٣/٤٦١) والمنتظم لابن الجوزي (١/٤٧٨).

وهو يعلم أنه مسؤول عنهم بين يدي الله، والإمام الذي يستطيع تكريم الناس يقوم بذلك، ولا يدخر جهدًا، والعالم الذي يستطيع تعليم الناس دين الله يبذل ما يستطيع من ذلك، والغني ميسور الحال يبذل ما يستطيع من ماله في نصرة الدين، فإذا تكافلت هذه الجهود كلها، وتكاثفت، فحينئذٍ سيعلم الله من قلوبكم أنكم أردتم نصرته، فينصركم.

وقد قال الله (تعالى): ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠]، وقال (تعالى): ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، وقد وعدكم إذا نصرتموه أن ينصركم، وأن يمكن لكم الدين الذي ارتضى لكم، فحاولوا ـ يا إخوتي ـ أن تتعاونوا على البر والتقوى، كما أمركم الله بذلك، وأن يكون الأمر إذا أمر لا يخذل.

فالإمام إذا وقف على المنبر، وأمر بمعروف، ودعا الناس إلى إصلاح فلم يستجب له أحد سينكف على نفسه، وينكف عن دعوته؛ لأنه لا رأي لمن لا يطاع، كما قال علي (رضي الله عنه): (يا أهل العراق لقد عصيتموني حتى قال الناس: ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، ووالله إني لجوذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، ولكن لا رأي لمن لا يطاع، فأبدلني الله خيرًا منكم، وأبدلكم شرًّا مني)[1].

وكما كتب عمر في رسالته إلى أبي موسى الأشعري (وأنفذ إذا قضيت فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له)[2]، فالتكلم بالحق ما لم يكن له نفاذ لا فائدة فيه، وقد قال زهير بن أبي سلمى[3]:

---

(١) الطبقات لابن سعد (٥٦٨/٣).

(٢) أخبار القضاة (٢٨٢/١).

(٣) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني، من مضر: حكيم الشعراء في الجاهلية. وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة. قال ابن الأعرابي: كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعرًا، وخاله شاعرًا، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة. ولد في بلاد (مزينة) بنواحي المدينة، وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد) واستمر بنوه فيه بعد الإسلام. قيل: كان ينظم القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في سنة فكانت قصائده تسمى (الحوليات) أشهر شعره معلقته التي مطلعها: (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) ويقال: إن أبياته التي في آخر هذه القصيدة تشبه كلام الأنبياء. له (ديوان). الأغاني (٢٨٨/١٠ ـ ٣٢٤) وجمهرة الأنساب (٢٥ و ٤٧).

إذا قام فيهم قائمٌ قال قاعد
أصبت، فلا غرم عليك، ولا خذل

هذا المطلوب إذا قام قائم، فدعا إلى الحق، أن يقول له القاعد: أصبت فلا غرم عليك ولا خذل، وكذلك الذي ينبري لتغيير منكر من منكرات يعلم به أهل المسجد، ويظهر في الحي الذي هم فيه، ينبغي أن يجد من يؤازره ويساعده، ولن يعدم الناس الخير ما دام فيه مؤازر ومساعد على الخير، فهذا وصف الله لأمة محمد ﷺ في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩]، من يعرف منكم الزرع، يعلم أن السنبلة التي تحمل الحب لو لم تؤازر بالسنابل الضعيفة؛ التي ليس فيها حب من الجوانب، إذًا ما استطاعت أن تحمل الحب، فالسنابل الضعيفة لا يقصد بها حمل الحب، لكن يقصد بها المؤازرة والمساندة، فمن كان منكم عاجزًا عن قول الحق فعليه أن يساند القائل بالحق، ومن كان عاجزًا عن تغيير المنكر بنفسه يخرج مع الذين يريدون تغييره.

إن القيام بالقسط إنما يكون من خلال هذه المؤسسات الدينية، ولا يوكل إلى أهل الدنيا، بل إذا كان الذين يجتمعون في المساجد على طهارة ينافسون الملائكة، ويمرون بهم الأول فالأول على أبواب المساجد، لا يقومون بنصرة الله، وإعلان الحق، فمن ينصره؟، إذا لم تكونوا أنصارًا للحق فعلى من تكلونه؟، إن عليكم أن تجتمعوا في

بيت من بيوت الله، وتنتظروا فريضة من فرائض الله، وترغبوا فيما عند الله وتخافوا عقوبته، أن تعلموا أنكم جند الله، وبذلك تريدون نصرته، ولو كلفكم ذلك ما كلفكم، فتتساعدون جميعًا في القيام بالقسط، والقيام بالعدل، ونصرة المظلوم، وردع الظالم عن ظلمه، وإعلان كلمة الحق مدويّة لا يردها الباطل، وكذلك بالتعاون فيما بينكم، فمن كان منكم لديه فضل من أي شيء فليعُد به على من ليس لديه ذلك.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: (بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ**»، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ)[1].

إن هذه المؤسسات الدينية إذا قامت بالحق لله (سبحانه وتعالى) في الأرض، فكونت في كل مسجد جماعة تسهر على مصالح الدين في ذلك الحي، فإذا ظهر فيه أي منكر من المنكرات أنكرت، وإذا قصر فيه في معروف أمرتْ، وإذا ظهرت فيه أية بدعة قاومتها في بداية

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه): كتاب اللقطة، باب استحباب المؤاساة بفضول المال، رقم (١٧٢٨).

نشأتها، وإذ حصل فيه ظلم نصرت المظلوم، وإذا حصل فيه ضعف قاومت ذلك الضعف، وتساعد المحتاجين إلى المساعدة، فإن هذه الجماعة سيرفع بها البلاء عن تلك القرية، يرفع بها البلاء لقيامها لله بالحق في الأرض، وسينصرها الله، ويحقق على يديها ما لم تكن تحلم به، ولا تفكر فيه.

إن العمل اليسير الذي يخلص فيه صاحبه لله، ويريد به إعلاء كلمته، يبارك الله فيه بركة عظيمة عجيبة؛ ولذلك فليس قبول العمل على أساس نتيجته، ولا على أساس قوة صاحبه، بل هو على أساس ما وقر في قلب صاحبه من الإيمان بالله، وقصد وجهه؛ ولهذا جاء عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: رَأَى سَعْدٌ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ**»[1]، إن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، رقم (٢٨٩٦) عن سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه). وأخرجه النسائي (٢٦١/١٠) بلفظ: «**إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلاتِهِمْ وَإِخْلاصِهِمْ**» وفي الباب عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ابغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**». أخرجه أبو داود (٢٢٢٧) والترمذي (١٦٢٤) والنسائي (٢٦٢/١٠) وأحمد (٢٠٧٣٨) والحاكم (١١٦/٥) من طريق زيد بن أرطاة، عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء، (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله ﷺ: فذكره. قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

كثيرًا من الضعفاء ضعفاء بالأبدان، أقوياء بالإيمان؛ فلذلك ينصر بهم الأقوياء ويرزقون.

ولذلك يذكر أهل التاريخ أن قتيبة بن مسلم[1] في غزوة من الغزوات حاصر حصنًا، فعرض له صف عظيم من الروم، فسأل عن محمد بن واسع[2]، وهو رجل من التابعين

---

(١) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، أبو حفص: أمير، فاتح، من مفاخر العرب. كان أبوه كبير القدر عند يزيد بن معاوية.
ونشأ هو في الدولة المروانية. فولي الري في أيام عبدالملك بن مروان، وخراسان في أيام ابنه الوليد. ووثب لغزو ما وراء النهر، فتوغل فيها. وافتتح كثيرًا من المدائن، كخوارزم، وسجستان، وسمرقند. وغزا أطراف الصين وضرب عليها الجزية. وأذعنت له بلاد ما وراء النهر كلها. واشتهرت فتوحاته، فاستمرت ولايته ثلاث عشرة سنة، وهو عظيم المكانة مرهوب الجانب. ومات الوليد، واستخلف سليمان بن عبدالملك، وكان هذا يكره قتيبة، فأراد قتيبة الاستقلال بما في يده، وجاهر بنزع الطاعة. واختلف عليه قادة جيشه، فقتله وكيع بن حسان التميمي، بفرغانة. وكان مع بطولته دمث الأخلاق، داهية، طويل الروية، راوية للشعر عالمًا به. قال أحد الأعاجم بعد مقتله: يا معشر العرب قتلتم قتيبة، ووالله لو كان فينا لجعلناه في تابوت واستفتحنا به غزونا. وقال المرزباني: وأهل البصرة يفخرون به وبولده. وفيات الأعيان (٤٢٨/١) والوافي بالوفيات (٢٢٦/٧).

(٢) هو محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس أبو بكر الأزدي البصري عابد البصرة أحد الأئمة العباد، روى عن أنس بن مالك ومطرف بن الشخير وعبيد بن عمير المكي وعبدالله بن الصامت وأبي صالح السمان وابن سيرين وغيرهم، روى عنه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، قال العجلي: ثقة صالح، قال الدارقطني: هو ثقة لكنه بلي برواة ضعفاء، قال الأصمعي: لما صاف قتيبة الترك وهاله أمرهم سأل عن محمد بن واسع فقيل: هو ذاك في الميمنة جانح على قوسه يبصبص بإصبعه إلى =

كان من العباد الزهاد، فقيل له: هو ذاك في طرف الجيش يرفع إصبعه النحيلة إلى الله، قال: «والله لأصبعه تلك أحب إلي من مائة ألف سيف»، فالجهود اليسيرة الضئيلة إذا قصد بها وجه الله تحقق ما لا تحققه الأموال الطائلة، والجهود الكبيرة، التي هي هواء في هواء إذا لم يقصد بها وجه الله، قال الله (تعالى): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٦ ـ ٣٧].

إن جهود أعداء الله التي يرصدون لها الأموال الطائلة، ويعدون لها الهيئات الكثيرة المشرعة، ولا تقف في وجهها أيّة عراقيل نظامية، ليس فيها بركة؛ ولذلك أذكر في تقرير للكنيسة في نواكشوط، قال فيه المنصر الموجود فيها: إنه يبدو أن صحراء موريتانيا أرض جرداء، لا تثمر ولا تنبت، ويقصد بذلك يأسه وهزيمته أمام دعوته؛ لأنه بذل الجهد في سبيل التنصير فلم يستجب له إلا القلائل من المفتونين؛ الذين باعوا آخرتهم بلعاعة يسيرة من الدنيا، ومع ذلك لو

= السماء، فقال: تلك الإصبع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير، وتوفي سنة ثلاث وعشرين ومائة. الوافي بالوفيات (١٥٣/٢) وتاريخ دمشق (١٦٨/٥٦).

اطلعتم على تقرير لبعض الهيئات العاملة في البلد، فالهيئات المنصرة الموجودة في موريتانيا الآن أكثر من سبعين هيئة، هيئة واحدة منها تملك من السيارات ما يمكن أن يغطي كل قرية على التراب الوطني، فقرى البلاد مائتان وثلاث وخمسين قرية، المراكز الإدارية تملك الواحدة من هذه **٢٥٣** سيارة، بالإمكان أن ترسل بعثة كل وقت في طول التراب الوطني، ومع ذلك فليس أمامها أية عراقيل، ولا تخاف أية مضايقة، ومع ذلك لاحظوا أنها ـ ولله الحمد ـ لم يكن لها الأثر الذي تريده.

كذلك عمل المهوِّدين الذين لا يسعون في إدخال الناس في اليهودية، وإنما يسعون في إخراج الناس من الإسلام فقط؛ لأنهم يرون أن اليهودية شرف لا يستحقه إلا من كان من بني إسرائيل، أو من كانت بينه وبينهم مشيجة قرابة، أما من سواهم فلا يستحقون هذا الشرف، لكن ينبغي أن يخرجوا من الدين، وأن يفسد عليهم ما يتمسكون به من الدين، وهذه المؤامرات اليهودية أُنفِقت عليها منذ مئات السنين الأموال الطائلة، وفكر فيها ذو الخبرة، وعُقدت لها المؤتمرات الدولية، وأقيمت لها بروتوكولات متقنة، ومع ذلك ـ ولله الحمد ـ ما زالت آثارها متخلّفة، لا تقارن بعمل الدعاة إلى الإسلام.

إن جهد الشاب الواحد، أو الشيخ الكبير السن المتوكل على الله، المؤمن به، المخلص الصادق؛ الذي يؤثر الآخرة

على الأولى، ولا يريد ذكرًا بين الناس، ولا شهرة بينهم، ولا يريد جزاءً منهم، لا يطلب منهم أجرًا على دعوته، هذا الجهد لا يمكنه أن يعدل به، وهو الذي يقوّض كل الجهود المخالفة؛ فلذلك عليكم ألا تحتقروا أنفسكم وأنتم تحملون دين الله العظيم، عليكم ألا تحتقروا جهودكم، وما آتاكم الله من القوة وأنتم تتقوون بهذا القرآن العظيم المحفوظ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ الذي قال الله فيه مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، جاهدهم بالقرآن جهادًا كبيرًا، وجاهدوهم بهذه السنة المحفوظة، فإن الله ميزكم بالإسناد.

فالأمم السابقة ليس لديهم أي إسناد، ولا يروون أي شيء بالأسانيد، لا اليهود ولا النصارى ولا غيرهم من الأمم، بل إن كل أمورهم غير متواترة، حتى كلام عيسى في المهد (عليه السلام) عندما أتوا مريم، فقالوا: لقد جئت شيئًا فريًا، فأشارت إليه انتزع فمه من الثدي، ووضع مرفقه على الأرض، ونظر إليهم بعينيه، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣١]، فهربوا جميعًا، ولم يستطع أحد منهم سماع هذا الكلام، إلا زكريا وحده، وأنتم الآن تروون السنة وهي بين أيديكم، وتعرفون أن النبي ﷺ حدث بهذه الأحاديث، بينما لا يعرف الآخرون شيئًا من دينهم، بل هو كله محرف، كل ما لديهم من دينهم

محرف مبدل، فلماذا يبذلون جهودهم الطائلة في نصرة دين محرف مبدل، ولا تبذلون جهودًا دونها في نصرة دين الحق، الذي اقتضاه الله لكم، وأكمله، وتولى عنكم حفظه، وقال فيه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

إن عليكم أن تعلموا أن لله عليكم حقًّا في نصرة هذا الشرع؛ الذي جاء به النبي ﷺ، وأنه من العار عليكم والعيب أن يتوزع الناس هذا الدين، فينكثوا عراه عروة عروة وأنتم موجودون، تعيشون تشمون الهواء، وتتفرجون في هذه الأرض، تذكروا أن أبا بكر (رضي الله عنه) حين أتاه الخبر بردة العرب عن دين الله، حين توفى الله رسوله ﷺ، أخرج سيفه من قرابه، وكسر القراب، وقال: أينقص هذا الدين وأنا حي؟[1]، لا يمكن أن ينقص الدين وأبو بكر حي، فلذلك أينقص هذا الدين وأنتم أحياء؟، أيعتدى عليه وأنتم ساكتون سامدون؟.

لا بد أن تبذلوا شيئًا في الدفاع عن دينكم، وتذكروا قوله (رضي الله عنه)، كما قالت عائشة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلاَّ ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ،

(١) مغازي الواقدي (٢/٢١٥).

فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ، وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ، عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلاَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤][1].

فدافعوا عن دينكم، وعليكم أن تجتهدوا في سلوك هذا الطريق وقد عرفتم، فالزموا، واعلموا أن العقبات التي تحول بينكم وبين سلوك الطريق أقسام، فمنها الطمع في غير الله، فكثير من الناس إنما يصرفه عن نصرة الحق طمعه فيما لدى أقوام؛ ليرضيهم أن ينصر هذا الدين، فلذلك هو يرغب في لعاعة من الدنيا في أيديهم، سواء كانت منصبًا أم مكانة اجتماعية، أم وظيفة، أم مالاً، فهو يتعرض لما في أيديهم ويتبع آثارهم وأقدامهم، وهؤلاء لا يملكون لأنفسهم ولا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: عَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا): كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (المناقب)، باب، رقم (٣٦٦٧)، (٣٦٦٨).

لغيرهم نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، قلوبهم بين إصبعين من أصابع الرحمٰن، وأنفسهم في يده (سبحانه وتعالى)، متى شاء أخذها.

• وشوشة الشيطان ووسائل تخويفه

كذلك من هذه العقبات الخوف، وهو أنواع: منه الخوف من أعداء الله، وما يمتلكونه من وسائل الإرعاب، وهذا الخوف ليس صحيحًا، بل هو مجرد وهم، كما قال (تعالى): ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ومعنى يخوف أوليائه: يحاول أن يحيطهم بهالة من الخوف لعلكم تخافونهم، لكن كيده ضعيف ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

ثم النوع **الثاني** من أنواع الخوف: الخوف على المصالح، فكثير من الناس قد أخذ موقعه في خريطة المجتمع، وله مكانة قد تبوّأها، فلا يريد أن يفقد تلك المكانة، أو تلك الوظيفة، أو ذلك المال، أو ذلك المنصب، ومن هنا فهو خائف على ما أحرزه، لكن هذا الخوف ـ كذلك ـ رده الله، بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨] والعيلة الفقر.

النوع **الثالث** من أنواع الخوف: الخوف من التشويه، فكثير من الناس لا يحاولون نصرة الدين؛ خوفًا من أن

يكونوا عرضة لألسنة الناس، وأن تتكالب عليهم الألسنة، فيشوهوا بأنواع الألقاب المزرية، ويوصفوا بالنعوت المرعبة، لكن لا يتذكر هؤلاء أن الله (عز وجل)، المتصف بصفات الكمال، المنزه عن النقائص، زعم الناس له صاحبة وولدًا، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] هل ضر الله هذا التشويه شيئًا؟، ورسل الله الذين اصطفاهم الله من خلقه، وأكمل خلقهم وهو القادر على ذلك، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟، يختارهم من الخلائق، فأكمل خلقهم، وخُلقهم فاختارهم بكل المعايير، مع ذلك ما منهم أحد إلا قيل فيه كذاب، مجنون، ساحر، كاهن، طالب سلطة، أتواصوا به بل هم قوم طاغون، هل ضر الرسل هذا التشويه شيئًا؟، ما ضرهم.

وأنتم ـ يا عباد الله ـ ما أنتم إلا حلقة صغيرة من سلسلة طويلة، فيها نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ، ومن على آثارهم من المقتدين، فكل نكبة أصابت حلقة من تلك الحلقات لا بد أن تصيب كل الحلقات، لكنها نكبات مباركة، فنكبة أصابت نوحًا أو أصابت إبراهيم، أو موسى، أو عيسى، أو محمدًا ﷺ مرحبًا بها وأهلاً، هذه النكبات التي تصيب الإنسان على طريق الحق نكبات مباركة، أصابت من هو خير منك، ولست أكرم

على الله منهم، فلذلك إذا أصابك شيء منها فهي نعمة اختارك الله بها، فأكثر الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

وكذلك من أنواع الخوف وهو **الرابع**: الخوف من التكاليف، فكثير من الناس لا يمنعهم من نصرة دين الله إلا أنه يخشى أن يتكلف بتكاليف وأعباء، وأن يجهد نفسه بأعمال يظن نفسه في غنى عنها، أو أنه بالإمكان ألا يكلف نفسه ذلك العناء، لكن الواقع أنه قد باع نفسه وماله لله، وأنه بذلك لن تزداد تكاليفه، فليس الإنسان يملك إلا نفسه وماله، وقد باع ذلك لله (عز وجل)، فكيف يخشى من زيادة التكاليف بعد ذلك، إن هذا من غرور الشيطان للإنسان، يظن أنه إن سعى لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه فإن التكاليف عليه ستزداد، والأعباء ستتضاعف، والواقع خلاف ذلك، فكلما ازداد الإنسان تضحية في سبيل الله سهل عليه البذل، وازداد نشاطًا وأهبة لنصرة دين الله، وما عليكم إلا أن تجربوا ذلك، فإن الذين سبقوكم كلما ازداد أحدهم في العمر ازداد في التضحية.

هذا أبو طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) وقد زكّاه النبي ﷺ تزكية كبيرة، فأخبر أن صوته في الجيش خير من مئة أو من فئة، فعن أنس بن مالك، «أن أبا طلحة، قرأ هذه الآية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، فقال: استنفرنا الله، وأمرنا الله، واستنفرنا شيوخًا وشبابًا جهزوني، فقال بنوه: يرحمك الله، إنك قد غزوت على عهد النبي ﷺ

وأبي بكر وعمر، ونحن نغزو عنك الآن، فغزا البحر، فمات، فطلبوا جزيرة يدفنونه فيها، فلم يقدروا عليه إلا بعد سبعة أيام، وما تغير»[1].

وكذلك فإن عمرو بن الجموح كان رجلاً أعرج شديد العرج، فكان له بنون أربعة، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد أمثال الأسد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا له: إن الله قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أنت فقد عذرك الله، فلا جهاد عليك**»، وقال لبنيه: «**لا عليكم أن لا تمنعوه؛ لعل الله أن يرزقه الشهادة**»، فخرج معه، فقتل يوم أحد[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤/٤٩٠)، ذكر وفاة أبي طلحة، وقال الهيثمي في المجمع (٤/٢٥٦): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وأخرجه الحاكم (٤/٤٣٥) والبيهقي (٩/٢١) وابن أبي حاتم (٢٥/٢٢٣) وأبو يعلى في مسنده (٧/٤٣٣) رقم (٣٣١٩). وابن حبان (٧٣٠٧) من طرق عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس (رضي الله عنه)، أن أبا طلحة (رضي الله عنه)... فذكره.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٢) أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (١٤/١٥٦) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٢٥٦) وفي السنن (٩/٢٤) من طريق ابن إسحاق قال: حدثني والدي إسحاق بن يسار عن أشياخ من بني سلمة قالوا: كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج... فذكره.

فبعد ست وأربعين سنة أخرجه السيل، قال جابر: فدُعِيت، فقيل لي: قد أخرج أبوك، فذهبت إليه فلم أفتقد شيئًا من خلقته، إلا شعرات كن على شامة، فكن أطول من لحيته، فصرن على قدر لحيته، وكذلك شباب صغار، كانوا مع النبي ﷺ يوم بدر فأحدهم حارثة، عن أنس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يَقُولُ: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الْأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: «**وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ**»[1].

وكذلك عُمير بن الحمام؛ الذي استشهد يوم بدر ولم يبلغ الحلم بعدُ، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا فَعَلَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُوْذِنُهُ**»، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**»، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٥٠) عن أنس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**»، قَالَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلاَّ رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**»، قَالَ: فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: ثُمَّ رَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ[1].

وكذلك منافسة أهل أحد على الخروج مع النبي ﷺ، حتى كان النبي ﷺ يجيز من أكمل خمسة عشرة سنة، ويرد من دونها، فجاء رافع بن خديج قد أجاز الخمس عشرة، فجاء سمرة بن جندب وكان أصغر منه في السن، فرده النبي ﷺ فقال أهله: إنه أقوى منه، فأمرهما رسول الله ﷺ أن يتصارعا، فصرعه سمرة، فأجازه النبي ﷺ[2] إنها المنافسة في الخير التي تقتضي من الإنسان كلما ازداد ذوقًا لهذا الخير، وتذوقًا له، وإيغالاً فيه، وأن يزداد عطاءً كلما ازداد يقينًا.

● نحن لها

فأنتم قد سمعتم الكثير، وقامت عليكم الحجة لله، فينبغي أن تزدادوا عملاً كلما ازداد اليقين في نفوسكم، كلما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه).

(٢) السيرة لابن إسحاق (٣١٢/١).

ازداد الإيمان واليقين ينبغي أن تزداد التضحية والبذل، هذا الذي يدعو إليه الإيمان، وهو الذي يقتضي ثباته واستقراره، إن من لا يدعوه إيمانه للعمل الصالح يوشك أن يُسلب إيمانه عند النزع، فيختم له بخاتمة السوء، نسأل الله حسن الخاتمة.

فاجتهدوا يا إخواني واعلموا أنكم في آخر هذه الأمة، وفي وقت الغربة، وفي وقت تكالب الأمم على الدين، وأنتم كذلك في ثغر من ثغور الإسلام بعيد، والحملة الشعواء على دينكم قد بدأت، وقد وصل السيل الزبى، فالمدن المحيطة بكم، والدول التي تحادكم، قد بلغ فيها السيل الزبى، في الهجوم على الدين، ولستم في منأى عن ذلك، ولا في مأمن منه، فمن الذي يضمن لكم أن تبقوا على ما أنتم عليه الآن من الدين.

إن هذا السيل آتٍ، وهو على المشارف، فإذا لم تقوموا سدًّا واحدًا، كالبنيان المرصوص في وجهه، فسيأخذكم السيل، ويذهب بكم أياديَ سبأ، فحافظوا على بقية الدين الباقية، واعلموا أن الأجيال اللاحقة ستلعن الجيل الذي فرط في الدين، وضيعه.

واعلموا أنها أمانة في أعناقكم، وأن عيب الدار على من بقي فيها؛ فلذلك حافظوا على هذه البقية، واحفظوها بما تحفظون به أملاككم، فإن أي أحد منكم لو جاء قوم يعتدون على داره، يريدون هدمها، فسيحاول الدفاع عنها بكل ما

يملك، وإن حفاظه على الدين ينبغي أن يكون أعظم من حفاظه على داره، فالدار مخلوفة، ودار الإنسان الحقيقية هي قبره، لكن الدين إذا فقد فهو غير مخلوف، لن يأتي بعد الإيمان إلا الكفر.

نسأل الله (سبحانه وتعالى) أن يختم بالصالحات أعمالنا، وأن يختم بالحسنات آجالنا، وأن يستعملنا في طاعته، وأن يجعلنا أجمعين هداة مهديين، غير ضالين ولا مضلين، وأن يعزنا بالدين، وأن يعز بنا الدين، وأن يجعلنا في قرة عين سيد المرسلين ﷺ، وأن يحشرنا تحت لوائه، وأن يبعثنا في زمرته، وأن يسقينا من حوضه ـ بيده الشريفة ـ شربة هنيئة، لا نظمأ بعدها أبدًا.

النـهر nhr-azb

التوازن والاعتدال في حياة المسلم

النـهر nhr-azb

التوازن والاعتدال في حياة المسلم

● موازيننا لا تختل

إن الله (عز وجل) إذ أرسل رسوله ﷺ بهذا الدين الكامل الشامل، جعله قوام حياة متكاملاً، يُصلح حياة الفرد، ويُصلح حياة المجتمع، ولم يرضَ ما سواه؛ ولذلك فهو المرضيّ عند الله (عز وجل)، وهو الذي اختاره للناس، فلا يمكن أن يقبل من أحد تشريعَ سواه، ولهذا قال الله (تعالى): ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وإن هذا الدين القويم الذي جاء به الرسول ﷺ يحتوي على قيم وركائز، يحتاج إليها الناس في حياتهم؛ ولا يمكن أن تستقيم أمورهم دونها، ومن هذه القيم والركائز قيمة الاعتدال والتوازن، إن الشطط والإفراط كلاهما وصف ذميم، منافٍ للعدل، وإن العدل قامت به السموات والأرض، ولا يمكن أن يصلح حال الناس إذا عدم العدل فيما بينهم، ومن هنا احتاج الإنسان إلى أن يكون متوازنًا في تصرفاته كلها،

معتدلاً في شخصيته، وكل فضيلة بين رذيلتين، فالإفراط والتفريط كلاهما رذيلة، وبينهما الاعتدال، وهذا في كل شئون الحياة، ففي مجال التعامل مع الله (عز وجل)، شرع لنا رسول الله ﷺ أن نوازن في وقتنا، بين حقوق النفس، وحقوق الله.

فعن عَبْدُاللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا): قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟**»، فَقُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ**»، فَشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، قَالَ: «**فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلَام)، وَلاَ تَزِدْ عَلَيْهِ**»، قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلَام)؟، قَالَ: «**نِصْفَ الدَّهْرِ**»، فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ، بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم (١٩٧٥). ومسلم في صحيحه: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، أو فوّت به حقًا، أو لم يفطر العيدين والتشريق، وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم، رقم (١١٥٩) عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا).

وقد نُقِل إلى رسول الله ﷺ أن بعض أصحابه سألوا عن عبادته فذكر لهم أنه ﷺ يقوم وينام ويصوم ويفطر، فاستصغروا ذلك فأنكر عليهم كما في حديث أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يَقُولُ: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ؟، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1].

وقد كان ﷺ إذا رأى بعض أصحابه شيئًا من هديه فيه هذا التوازن بين حقوق النفس، وحقوق الله (عز وجل)، قالوا: إنا ليس كهيئتك، إنك قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يُعرف الغضب في وجهه، ويقول: «**من رغب عن سنتي فليس مني**»[2]. وقد ثبت في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: كَانَتْ عِنْدِي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣). ومسلم في صحيحه: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه...، رقم (١٤٠١) عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ (رضي الله عنه).

(٢) تقدم تخريجه بنحوه.

امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَنْ هَذِهِ؟**»، قُلْتُ فُلاَنَةُ، لاَ تَنَامُ بِاللَّيْلِ، فَذُكِرَ مِنْ صَلاَتِهَا، فَقَالَ: «**مَهْ، عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنْ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»[1]، وكذلك في الصحيحين من حديث عائشة (رضي الله عنها) قَالَتْ: لَمْ يَكُن النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ شَهْرًا أَكْثَرَ مِنْ شَعْبَانَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ يَقُولُ: «**خُذُوا مِنْ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»، وَأَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ، وَإِنْ قَلَّتْ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى صَلاَةً دَاوَمَ عَلَيْهَا[2].

ومن هنا بالغ رسول الله ﷺ في الحض على هذا التوازن في التعامل مع الله (عز وجل) فقد أخرج البخاري في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ، وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التهجد (الصلاة)، باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم (١١٥١). ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره...، رقم (٧٨٥) عَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب صوم شعبان، رقم (١٩٧٠). ومسلم في صحيحه: كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان...، رقم (١١٥٦) عَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه).

وفي الحديث الآخر عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**»[1]، وفي رواية: **إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، فإن المنبت لا سفرًا قطع، ولا ظهرًا أبقى**»[2]، والمنبت هو ذو السير الجاد؛ الذي لا راحة فيه، فهو مفرط متفانٍ في سيره.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: من مسند أنس بن مالك (رضي الله عنه) قَالَ عَبْداللَّهِ: وَجَدْتُ فِي كِتَابِ أَبِي بِخَطِّ يَدِهِ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ حَمْزَةَ حَدَّثَنَا خَلَفٌ أَبُو الرَّبِيعِ إِمَامُ مَسْجِدِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فذكره.
قال الهيثمي في المجمع (٦٢/١): رواه أحمد ورجاله موثقون، إلا أن خلف بن مهران، لم يدرك أنسًا، والله أعلم.

(٢) رواه البزار في مسنده (٧٤). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١/١): فيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل، وهو كذاب. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٩/٣)، وفي «الشعب» (٤٠٩/٨) من طريق أبي صالح: حدثنا الليث عن ابن عجلان عن مولى لعمر بن عبدالعزيز عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعًا.
وهذا إسناد ضعيف لجهالة المولى الذي لم يسم، وضعف في أبي صالح، وهو عبدالله بن صالح. وله شاهد من حديث جابر بن عبدالله مرفوعًا به دون قوله: «فاعمل...» إلخ. أخرجه البزار (٧٤)، والحاكم في «معرفة علوم الحديث» (٩٥ و٩٦) والقضاعي (١١٤٧ و١١٤٨) من طريق أبي عقيل يحيى بن المتوكل عن محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عنه. وقال الحاكم: «حديث غريب الإسناد والمتن». وشاهد آخر من حديث عائشة. أخرجه البيهقي في الشعب (٤٠٩/٨) من طريق عبيد الله بن عمرو، عن محمد بن سوقة، عن محمد بن المنكدر، عن عائشة، عن النبي ﷺ. وقال: ورواه أبو عقيل يحيى بن المتوكل، عن =

والمقصود هنا السير إلى الله (عز وجل) في العبادة، لا أرضًا قطع؛ لأنه أفنى راحته، وأفنى راحلته في وقت يسير، والعبادة مستمرة مع الإنسان طيلة عمره؛ فلذلك على الإنسان ألا يمل نفسه منها؛ لأن المقصود أن يبقى مقبلاً على الله (عز وجل)، بقلب خاشع، وبتعامل هادئ، طيلة عمره، حتى يلقى الله (عز وجل)، لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى، فعدته هي الظهر الذي يركبه، والمقصود به الراحلة، والمعنى من ذلك التمثيل ببدن الإنسان، وما يطيقه من الأعمال...

وفي المقابل فإن الله (عز وجل) حض على كثير من الأعمال الصالحة التي يراد بها وجه الله، وبين حال الذين رضيهم في كتابه فقال جل وعلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧]، وكذلك يقول الله (عز وجل): ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٤]، والمقصود ببياتهم سجدًا وقيامًا أن يقوموا ما تيسر من الليل لا قيام الليل كله، فلم يرو عن رسول الله ﷺ الذي جعله الله أسوة للناس أنه قام الليل كله، ولم يرو عنه

= محمد بن سوقة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، ورواه أبو معاوية، عن محمد بن سوقة، عن محمد بن المنكدر، عن النبي ﷺ مرسلاً، وهو الصحيح.

أنه ترك قيام الليل إلا ليلة واحدة، هي ليلة مزدلفة والرواية في أنه ترك قيام الليل هي رواية عبدالله بن مسعود عنه في الصحيح[1]، ولكن كثيرًا من أهل العلم حملوا ذلك على أنه من نفي العلم بالشيء، ومن المسلّم في الأصول عدم العلم بالشيء ليس علمًا بعدمه، فابن مسعود لم يعلم أن رسول الله ﷺ قام هذه الليلة، ولكن لا ينفي ذلك أنه يكون قد قامها، فابن مسعود إنما ينفي علمه هو، وعدم علمه بالشيء ليس علمًا له بعدمه، فلذلك الأصل ألا يترك الإنسان قيام الليل، مهما كانت حالته.

ولهذا فإن رسول الله ﷺ كان يبين لأصحابه طريقة قيام الليل فقد روى عنه ابن عباس (رضي الله عنهما) هيئة قيامه لليل فقد أخرج البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَقُلْتُ: لأَنْظُرَنَّ إِلَى صَلاَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَطُرِحَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِسَادَةٌ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طُولِهَا، فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَاتِ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ آلِ عِمْرَانَ، حَتَّى خَتَمَ، ثُمَّ أَتَى شَنًّا مُعَلَّقًا، فَأَخَذَهُ، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَقُمْتُ، فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ، ثُمَّ جِئْتُ، فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِي، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِي، فَجَعَلَ يَفْتِلُهَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحج، باب من أذن وأقام لكل واحدة منهما، رقم (١٦٧٥).

صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَوْتَرَ[1].

وكذلك فإن ابن مسعود (رضي الله عنه) قَالَ: (صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَطَالَ، حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ، قَالَ: قِيلَ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟، قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ، وَأَدَعَهُ[2].

وعن حُذَيْفَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلاً، قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير (سورة آل عمران)، باب ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ...﴾، رقم (٤٥٧٠). ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، رقم (٧٦٣) عَن ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التهجد (الصلاة)، باب طول القيام في صلاة الليل، رقم (١١٣٥)، ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٣) عن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه).

«**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ[1]، فيذكر حذيفة أن رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء يكون في أمر العامة، معناه في تدبير أمر الدولة وأمور المسلمين، ثم إذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلى بيته، فتعشى، ثم نام في الثلث الأول من الليل، فإذا كان شطر الليل، أي نصفه، قام رسول الله ﷺ، فتوضأ، واستاك، ثم صلى قيام الليل، فإذا لم يبقَ من الليل إلا السدس نام رسول الله ﷺ.

ومع هذا، فإن أَبا سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَأَلَ عَائِشَةَ: كَيْفَ كَانَتْ صَلاَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ؟، قَالَتْ: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ، وَلاَ فِي غَيْرِهِ، عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلاَ تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلاَ تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلاَثًا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ، وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي**»[2]، وفي رواية: (كَانَ يُصَلِّي ثَلاَثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي ثَمَانِ رَكَعَاتٍ، ثُمَّ يُوتِرُ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ، فَإِذَا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢) عن حذيفة (رضي الله عنه).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التهجد (الصلاة)، باب قيام النبي ﷺ بالليل في رمضان وغيره، رقم (١١٤٧). ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل...، رقم (٧٣٨) عن عائشة (رضي الله عنها).

أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ، فَرَكَعَ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، بَيْنَ النِّدَاءِ وَالْإِقَامَةِ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ[1] وهذا من الاعتدال في التعامل مع الله.

وكذلك في صيامه ﷺ في النفل، فقد كانت عائشة (رضي الله عنها) تقول: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لاَ يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ لاَ يَصُومُ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلاَّ رَمَضَانَ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ[2].

وقد كان رسول الله ﷺ يصوم أكثر شعبان، كما في حديث أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنْ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ، قَالَ: «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ، بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»[3] وكان ﷺ يعجبه أن يصوم يوم الاثنين، كما جاء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التهجد (الصلاة)، باب كيف كانت صلاة النبي ﷺ، وكم كان النبي ﷺ يصلي من الليل، رقم (١١٤٠). ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل...، رقم (٧٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب صوم شعبان، رقم (١٩٦٩). ومسلم في صحيحه: كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان...، رقم (١١٥٦) عن عائشة (رضي الله عنها).

(٣) أخرجه النسائي في سننه: كتاب الصيام، باب صوم النبي ﷺ بأبي هو وأمي، وذكر اختلاف الناقلين للخبر في ذلك، رقم (٢٣٥٩)، (٨/٥٩). =

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ، قَالَ: «**ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ، أَوْ: أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ**»(١)، وكذلك كان يعجبه صيام الاثنين والخميس، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»(٢).

● السهم المضروب في موضعه

وكذلك في إنفاقه ﷺ، فإن الله قد أدبه، فأحسن تأديبه، فقال له (سبحانه وتعالى): ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ

= وأحمد في المسند: (٢٠٧٥٨) من مسند أسامة بن زيد (رضي الله عنهما). وابن أبي شيبة (٢/٥١٤) والبيهقي في الشعب (٨/٣٤٠) من طريق ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ أَبُو الْغُصْنِ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنْ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ قال: فذكره. قال المنذري في مختصر السنن (٣/٣٢٠): وهو حديث حسن.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفة، وعاشوراء، والاثنين والخميس، رقم (١١٦٠) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ (رضي الله عنه).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الصوم، باب ما جاء في صوم يوم الاثنين والخميس، رقم (٧٤٧)، وقال الترمذي: حديث أبي هريرة في هذا الباب حديث حسن غريب، وابن ماجه (١٧٤٠) من طريق سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعًا به. وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ. وقال البوصيري في (الزوائد) (٢/١١٠): (هذا إسناد صحيح رجاله ثقات) وفي الباب عن أسامة بن زيد وقد تقدم الكلام عنه.

عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]، فإن بسط اليد معناه العطاء، حتى يعطي كل ما لديه، وينفق كل ما يملك، وجعلها مغلولة إلى العنق معناه الامتناع عن العطاء مطلقًا، بألا يهب شيئًا، ولا يعطي شيئًا، وكلتاهما صفة ذميمة، فأدب الله رسوله ﷺ هذا الأدب الحسن، فعلمه الحد الأوسط بين الأمرين، وهذا الاعتدال نجده في أمر الله للمؤمنين في الإنفاق، في قوله (تعالى): ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]، كان بين ذلك أي بين هذين الأمرين، وهما الإنفاق حتى يصل إلى حد الإسراف، والإقتار: أي التقليل من الإنفاق حتى يصل إلى حد الإقتار، فبين هذين الأمرين وسط محمود شرعًا، وهو الاعتدال والتوازن[1].

والإشارة بذلك في قوله (تعالى): ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، من الإشارة بالمفرد وإرادة التثنية،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية (٦/١٢٤):

أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهْليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عَدْلاً خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ ـ ثم ذكر بسنده من طريق البزار عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحسن القصد في الغنى، وأحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في العبادة**» اهـ، وقال الحافظ ابن حجر في «زوائده» (ص ٣٢٤ ـ المصورة): «إسناده حسن».

ويكثر هذا في القرآن، مثل قول الله (تعالى): ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، والمقصود بين ذلك وكذلك هنا، وكان بين ذلك قوامًا، وكان بين ذيلك قومًا، واستعمال اسم الإشارة للمفرد ينبه على أن المقصود بناء هذه الصورة، وهي القيمة المثلى الوسطية في الإنفاق.

وكذلك في التعامل مع الناس، فإن رسول الله ﷺ كان شديدًا على الكفار وأعداء الحق، وكان سهلاً لينًا على أهل الإيمان، وهذه الصفة المحمودة نفتقدها في كثير من المسلمين، فنجدهم أشداء على المسلمين، ولكن في المقابل هم أذلة على الكافرين، وهذا عكس المطلوب شرعًا، فالله (عز وجل) أثنى على رسوله ﷺ وأصحابه بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ويقول الله (تعالى): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا المقصود شرعًا، أن يعرف الإنسان على من تكون شدته، ولمن تكون ليونته.

فمن ليس لديه التوازن والاعتدال يجعل الشدة في غير موضعها، ويجعل اللين في غير موضعه، فاللين للمؤمنين فهم عيال الله، وهم عباد الله وإخوانك، ومن قصر منهم، ونقص المكيال في حقك، فهو أولى بالمسامحة، وأن تعفو عمن ظلمك، وتحسن إلى من أساء إليك، وأما أعداء الحق

فهم أعداء الله (عز وجل) أوجب الله (تعالى) الشدة عليهم والغلظة، فقال (تعالى): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وهذه الغلظة هي التي أمر الله (تعالى) رسوله ﷺ أن يعامل بها الكفار والمنافقين، قال (تعالى): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣]، فلذلك لا بد أن يعتدل الإنسان في هذا التعامل، فيجعل شدته على أعداء الله، وليونته لأولياء الله المؤمنين.

إن كثيرًا من الناس تنعكس عليه هذه القيمة، فتجده يتشدد مع المؤمنين بسبب اختلاف في الرأي، أو بسبب حصول تقصير، أو تفريط من بعض المؤمنين، فالمؤمنون لا يمكن أن يكونوا معصومين، يقعون في الخطأ كما يقعون في الصواب، وإذا نظر الإنسان إلى نفسه بهذه النظرة، وعلم أنه هو أيضًا غير معصوم، يقع منه الخطأ والصواب، فإن نظرته إلى المؤمنين ستكون نظرة معتدلة، يسامح من قصر في حقه، ويستغفر لمن قصر في حق الله (عز وجل)، ويسأل الله للجميع المغفرة، كما علمنا الله ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠]، وتكون شدته وغلظته على أعداء الله (عز وجل)، ومخالفي الحق، فهم أولى بذلك، وهم الذين أمر الله أن نوليهم هذه الغلظة، وهذه الشدة.

● سباحة لا غرق

وكذلك في التعامل مع الأحداث، فأهل الإيمان يتعاملون مع الأحداث بكل ثبات وطمأنينة؛ لأنهم يعلمون أنه قد رفعت الأقلام، وجفت الصحف عما هو كائن، وأن ما كتب سيكون، وما قدره الله كائن، وهم يعلمون أن موتتهم واحدة، كتبها الله، ولا بد أن تأتي: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]، أما من فقد هذه القيمة، ونقص إيمانه بقدر الله (عز وجل)، فإنه يكون شديد الطمع، شديد الخوف، فإذا جاءته مشكلة أيًّا كانت لم يستطع الصمود أمامها؛ لأنه لا يقدر الإيمان بقدر الله، ولا يتهيأ لذلك، وإذا جاءته سراء أيضًا فرح بها فرحًا يخرجه عن طوره، كما قال قارون عندما أنعم الله عليه بأنواع النعم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ

بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٧٨ ـ ٨٢].

فلذلك، ينظر أهل الإيمان إلى هذه الأحداث التي تمر في الحياة على أنها من عند الله، فإذا جاءت السراء شكروا؛ لعلمهم أن هذه السراء نعمة من عند الله، وإذا جاءت الضراء صبروا؛ لعلمهم أنها من عند الله ﴿كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

وهؤلاء هم المصلون فهذه الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، تقوي شخصية صاحبها حتى لا يكون شديد الطمع في غير الله، ولا يكون شديد الخوف من غير الله، الذي يسجد لله، ويركع لله، معناه أنه يعلن بذلك أنه لا يركع لغير الله، ولا يسجد لغير الله، ومن هنا لا يخاف أحدًا سوى الله (عز وجل)، ولا يطمع ولا يرفع حوائجه إلا إلى الله، ولهذا قال الله (تعالى): ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]، فالمصلون لا يتصفون بهذه الصفة الذميمة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (**٢٩٩٩**) عَنْ صُهَيْبٍ (رضي الله عنه).

كذلك من قيم الاعتدال، الاعتدال في الحكم على الناس والنظرة إليهم، فالله (عز وجل) قد اتصف بصفة الرحمة؛ التي وصف بها نفسه، واشتق لنفسه منها اسمين، فهو (عز وجل) الرحمٰن الرحيم، وهذه الرحمة صفة من الصفات التي يطلب بها التعلق والتخلق، فصفات الله (عز وجل) قسمان: (**صفات للتعلق والتخلق**)، و(**صفات للتعلق دون التخلق**).

فالصفات التي هي للتعلق والتخلق، معناها: هي التي يُسأل الله بها، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، مع ذلك يطلب من المخلوق أن يتحلى بما يناسبه من تلك الصفة، مثل الرحمة، فالإنسان عليه أن يسأل الله باسمه الرحمٰن الرحيم، وبصفة الرحمة، وعليه كذلك أن يتخلق بهذه الصفة، ولهذا فإن الحديث المسلسل بالأولية؛ الذي هو أول ما يحدث به المحدثون إذا حدثوا الحديث، عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِن الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ**»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١). والترمذي في سننه: كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم (١٩٢٤). وأحمد (٦٢٠٦) وابن أبي شيبة (٩٣/٦) والطبراني في الكبير (١٠٨/٢٠) والحاكم (١٥٩/٤) والبيهقي =

وكذلك حديث أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَدْعُوهُ، وَتُخْبِرُهُ أَنَّ صَبِيًّا لَهَا، أَوْ ابْنًا لَهَا فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ لِلرَّسُولِ: «**ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا، فَلْتَصْبِرْ، وَلْتَحْتَسِبْ**»، فَعَادَ الرَّسُولُ، فَقَالَ: إِنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا، قَالَ: فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمْ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ، كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ، جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[1].

وكلنا نحتاج إلى رحمة الله، فمن أجل ذلك علينا أن نرحم عباد الله، وهذه الرحمة هي الإحسان المذكور في

= (٤١/٩) من طرق عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس مولى عبدالله بن عمرو عن عبدالله بن عمرو مرفوعًا. قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وله شاهد من حديث جرير قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ لا يَرْحَمْ مَنْ فِي الأَرْضِ لا يَرْحَمُهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ**». أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/٣) من طريق عُثْمَانُ بن سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو وَكِيعٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ، عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فذكره. قال المنذري في «الترغيب» (١٥٥/٣): «وإسناده جيد قوي».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد، باب قول الله (تبارك وتعالى): ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، رقم (٧٣٧٧)، ومسلم في صحيحه: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣). عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ (رضي الله عنه).

حديث شداد بن أوس (رضي الله عنهما) قال: (ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»)[1].

إن هذه الرحمة مقتضية بأن تحرص على هداية الكفار، وعلى هداية الفساق، وإذا كنت في سبيل دعوتهم فافعل ما فعل موسى (عليه السلام) ما أمره الله به: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]، وإذا كنت في سبيل حربهم فأحسن القِتلة، وكذلك في التعامل مع البهائم، ومع الجمادات، فكلها مخلوقات لله وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته، ومن هنا يقول الحكيم:

ارحم بنيّ جميع الخلق كلهم
وانظر إليهم بعين الرفق والشفقة
وقّر كبيرهم وارحم صغيرهم
وراعِ في كل خلق حق من خلقه[2]

فكلهم مخلوقون لله، فلهذا يراعي فيهم حق الله الذي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، رقم (**١٩٥٥**) عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ (رضي الله عنه).

(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (**٢٠٣/١**).

خلقهم وسواهم، كذلك فإن هذه الرحمة مقتضية للحرص على هداية الناس، ومساعدتهم على الهداية، وأن يكون الإنسان من الذين يدلون على الله، ويوصلون إليه، وألا يكون من قطاع الطريق في الطريق إلى الله، إن كثيرًا من الناس يقطعون الطريق على السالكين إلى الله (عز وجل)، فيمنعونهم من الاستمرار على طريق الهداية، وهؤلاء هم قطاع الطرق في الواقع.

ولهذا جاء عن أَبِي مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ؛ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ، مِمَّا يُطِيلُ بِنَا، قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَطُّ أَشَدَّ غَضَبًا فِي مَوْعِظَةٍ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ فِيهِم الْمَرِيضَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ**»(١).

الذين ينفرون الناس عن طريق الحق، سواء كان ذلك بالتشدد في الدين وعدم الأخذ بالرخص، أم كان ذلك بالتنفير بالكلام الغليظ؛ الذي دأب كثير من الناس على معاملة الناس به، كل هؤلاء خرجوا عن المنهج الصحيح،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله، رقم (٦١١٠). ومسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، رقم (٤٦٦) عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ (رضي الله عنه).

وقد روى ابن جريج رحمه الله (تعالى)[1]، أنه كان في مجلس عطاء بن أبي رباح[2]، فأتاه رجل، فقال: يا عطاء، إنك يكون في مجلسك أنواع الناس، وإنني أشدد عليهم في القول، ولا أراك تفعل ذلك، كان عطاء (رحمه الله) في أيام الفتنة، فيجلس في مجلسه الشيعة، والسنة، ومن هم أتباع لأهل الشام، تبع للدولة الأموية في ذلك الوقت، ومن هم من أتباع ابن الزبير في مكة، وأتباع المختار بن أبي عبيد[3]

---

(١) هو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج، أبو الوليد وأبو خالد: فقيه الحرم المكي. كان إمام أهل الحجاز في عصره. وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة. رومي الأصل، من موالي قريش. مكي المولد والوفاة. قال الذهبي: كان ثبتًا، لكنه يدلس. تذكرة الحفاظ (١/١٦٠) صفة الصفوة (٢/١٢٢).

(٢) هو عطاء بن أسلم بن صفوان: تابعي، من أجلاء الفقهاء. كان عبدًا أسود. ولد في جند (باليمن) ونشأ بمكة فكان مفتي أهلها ومحدثهم، وتوفي فيها. وقدم ابن عمر مكة فسألوه فقال: أتجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن أبي رباح. عن أسلم المنقري قال: كنت جالسًا مع أبي جعفر فمر عليه عطاء، فقال: ما بقي أحد أعلم بمناسك الحج من عطاء، زاد ابن أبي شيبة ابن أبي رباح، وقال: ما بقي على ظهر الأرض أحد أعلم بالحج من عطاء. تاريخ دمشق (٤٠/٣٨٢ ـ ٣٨٣).

(٣) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، أبو إسحاق: من زعماء الثائرين على بني أمية، وأحد الشجعان الأفذاذ. من أهل الطائف.

انتقل منها إلى المدينة مع أبيه في زمن عمر وتوجه أبوه إلى العراق فاستشهد يوم الجسر، وبقي المختار في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم. وتزوج عبدالله بن عمر بن الخطاب أخته (صفية بنت أبي عبيد) ثم كان مع علي بالعراق، وسكن البصرة بعد علي.

ولما قتل (الحسين) سنة ٦١هـ، انحرف المختار عن عبيد الله بن زياد =

في العراق، فيجتمع كل هؤلاء في مجلس عطاء بن أبي رباح، فقال له: وأتشدد عليهم في المقالة، ولا أراك تفعل ذلك، فقال عطاء: إني سمعت قول الله (تعالى): ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

فيدخل في ذلك اليهودي والنصراني، وقولوا للناس حسنًا، يطلب من المؤمن أن يقول للناس حسنًا؛ لعله يكون لهم طريقًا إلى الله (عز وجل)، ويدلهم عليه، ويهديهم بقوله، وألا ينفرهم ويقف في وجوه هدايتهم؛ فإنه بذلك

= (أمير البصرة)، فقبض عليه ابن زياد وجلده وحبسه، ونفاه بشفاعة ابن عمر إلى الطائف، ولما مات يزيد بن معاوية (سنة ٦٤) وقام عبدالله بن الزبير في المدينة بطلب الخلافة، ذهب إليه المختار، وعاهده وشهد معه بداية حرب الحصين ابن نمير، ثم استأذنه في التوجه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى طاعته، فوثق به، وأرسله، ووصى عليه.

غير أنه كان أكبر همه منذ دخل الكوفة أن يقتل من قاتلوا (الحسين) وقتلوه، فدعا إلى إمامة (محمد ابن الحنفية) وقال: إنه استخلفه، فبايعه زهاء سبعة عشر ألف رجل سرًّا، فخرج بهم على والي الكوفة، عبدالله بن مطيع، فغلب عليها، واستولى على الموصل، وعظم شأنه. وتتبع قتلة الحسين، فقتل منهم شمر بن ذي الجوشن؛ الذى باشر قتل الحسين، وخولي بن يزيد؛ الذي سار برأسه إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقاص، أمير الجيش الذي حاربه، وأرسل إبراهيم بن الأشتر في عسكر كثيف إلى عبيد الله بن زياد، الذي جهز الجيش لحرب الحسين، فقتل ابن زياد، وقتل كثيرين ممن كان لهم ضلع في تلك الجريمة، وكان يرسل بعض المال إلى صهره ابن عمر وإلى ابن عباس وإلى ابن الحنفية، فيقبلونه. وشاعت في الناس أخبار عنه بأنه ادعى النبوة، ونزول الوحي عليه، وأنه كان لا يوقف له على مذهب. تاريخ الطبري (١٤٦/٧).

يكون قاطعًا للطريق، ومن هنا شُرِع لمن يدعو الناس أن يعرف أوضاعهم وأحوالهم، وألا يأخذ للناس بالعزائم المنفرة، ولهذا قال سفيان بن عيينة[1] (رحمه الله): ليس الفقه بكثرة التشدد، إنما الفقه في التسهيل[2]، أما التشدد فيحسنه كل أحد، فالفقيه هو الذي يبحث للناس عما يُصلح معاشهم، ويبحث لهم عن الرخص، وأما التشدد فيحسنه كل أحد، فبالإمكان أن يتشدد كل إنسان في أية مسألة، ومن هنا؛ فإن المتشددين في الدين، والمبالغين فيه، هم أول من ابتدع في هذه الملة.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: بَعَثَ عَلِيٌّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فَقَسَمَهَا بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ: الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيِّ ثُمَّ الْمُجَاشِعِيِّ، وَعُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيِّ، وَزَيْدٍ الطَّائِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ، وَعَلْقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ الْعَامِرِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلاَبٍ، فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَالْأَنْصَارُ، قَالُوا يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا، قَالَ: «**إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ**»، فَأَقْبَلَ

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد: محدث الحرم المكي. من الموالي، ولد بالكوفة، وسكن مكة وتوفي بها. كان حافظًا ثقة، واسع العلم كبير القدر، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، وكان أعور، وحج سبعين سنة. قال علي بن حرب: كنت أحب أن لي جارية في غنج ابن عيينة إذا حدث!، له (الجامع) في الحديث، وكتاب في (التفسير). تذكرة الحفاظ (١/٢٤٢) وحلية الأولياء (٧/٢٧٠).

(٢) المنتظم لابن الجوزي (١/٢١٥).

رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقٌ فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ: «**مَنْ يُطِعْ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُ أَيَأْمَنُنِي اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَلا تَأْمَنُونِي**»، فَسَأَلَهُ رَجُلٌ قَتْلَهُ، أَحْسِبُهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، فَمَنَعَهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: «**إِنَّ مِنْ ضِئْضِيءِ هَذَا، أَوْ فِي عَقِبِ هَذَا، قَوْمًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِن الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»[1].

وفي رواية: (بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْدِلْ، فَقَالَ: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذًا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**»، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا، يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِن الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ ـ وَهُوَ قِدْحُهُ ـ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ـ شديدة ـ عاتية) رقم (٣٣٤٤)، ومسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه).

فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ، فَالْتُمِسَ، فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ، عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ؛ الَّذِي نَعَتَهُ)[1].

وهؤلاء هم الذين خرجوا على الخليفتين الراشدين: عثمان وعلي (رضي الله عنهما)، فقد تشدد هؤلاء الخوارج أي: تشدد معهما، فقالوا لعثمان (رضي الله عنه): ما نراك تعدل في الرعية، وإنك لتولي أقاربك، وتهتم بالغزو إلى غير الجهات التي نريدها، ولا تريح الجيوش، فاختلفوا عليه، من قائل يقول: أرِحِ الجيوشَ، ودعها من الغزو المستمر، وقائل يقول: إن الغزو قد توقف، فأرسل الجيوش تجاهد، لما اختلفت عليه آراؤهم (رضي الله عنه)، أخذ بالعزم معهم والشدة، فثاروا عليه حتى قتلوه مظلومًا، في الشهر الحرام، في البلد الحرام.

وهذا أول فتق في الإسلام، وأول مصيبة من مصائب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٠)، ومسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه).

هذه الأمة العامة، فلما قُتِل عثمان (رضي الله عنه) رفع السيف على هذه الأمة، وجعل بأسها بينها، ولم تزل في تناحر وقتال فترة طويلة، ولي في هذه الفترة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وهو أول من صلى مع رسول الله ﷺ، وأول من آمن به من الذكور وهو ابن عمه وصهره، وقد شهد له بالجنة مرارًا في كثير من المشاهد، وقال له: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى غَيْرَ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي**»(١).

فثاروا عليه وقالوا إنه يحكّم الرجال في كتاب الله وكفروه، فقال لهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): ويلكم، فبعد أن انحسر الشعر عن رأسي أكفر برسول الله ﷺ، وأنا أول من آمن به، لا يمكن أن يكون هذا، كيف يكفر به وهو أول من صدقه، ثم إن رجلاً منهم أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما لك اختلف الناس عليك، وعلى صاحبك، يقصد بذلك عثمان، واتفقوا على أبي بكر وعمر، فقال علي: اتفق الناس على أبي بكر وعمر حين كان الناس أنا وعثمان وأمثالنا، واختلف الناس عليّ وعلى عثمان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، رقم (٣٧٠٦)، ورقم (٤٤١٦)، ومسلم في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي (رضي الله عنه)، رقم (٢٤٠٤) عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ (رضي الله عنه).

حين كان الناس أنت وأمثالك[1].

وكذلك، فإن هؤلاء كانوا هم السبب في قتل علي (رضي الله عنه)، وهم بذلك يظنون أنهم يخلصون هذه الأمة من طاغوت أكبر، الطاغوت الأكبر عندهم أصحاب رسول الله ﷺ وحملة لواء هذا الدين: علي، ومعاوية، وعمرو بن العاص (رضي الله عنهم) أجمعين، فقال: لا بد من قتل هؤلاء الطواغيت الثلاثة، إن أمة طواغيتها هؤلاء لن تعدم خيرًا، ومع ذلك لم يقم هؤلاء أي مشروع ناجح، يهدمون ولا يبنون، ولم تقم لهم قائمة، حاولوا في فترات من التاريخ أن يقيموا دولاً، ولكن الله لم ييسر لهم ذلك.

يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة (رضي الله عنه)، وهو آخر من رأى رسول الله ﷺ في هذه الحياة الدنيا[2]، يقول: «لن يؤتي الله أقوامًا ببغضهم في الدين عزًا ولا في الأرض تمكينًا»، لم تقم لهؤلاء المتشددين في الدين دولة قط، إلا فترة يسيرة، وهي مدة سنتين، قام فيها نجدة بن عامر[3] في

---

(١) المغازي للواقدي (١/١٠٣).

(٢) قال مسلم في صحيحه (٤٣١٥): مَاتَ أَبُو الطُّفَيْلِ سَنَةَ مِائَةٍ، وَكَانَ آخِرَ مَنْ مَاتَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(٣) هو نجدة بن عامر الحروري الحنفي، من بني حنيفة، من بكر بن وائل: رأس الفرقة «النجدية» نسبة إليه، من الحرورية، ويعرف أصحابها بالنجدات. من كبار أصحاب الثورات في صدر الإسلام. انفرد عن سائر «الخوارج» بآراء. قال ابن حجر العسقلاني: قدم مكة، وله مقالات =

اليمامة، ثم بعدها مدة سنتين أخريين، قام فيهما الوليد بن طريف[1] على هارون الرشيد، ثم قتله يزيد بن مزيد، وفي ذلك يقول مسلم بن الوليد:

= معروفة وأتباع انقرضوا. كان أول أمره مع نافع بن الأزرق، وفارقه لإحداثه في مذهبه. ثم «خرج» مستقلاً باليمامة (سنة ٦٦هـ) أيام عبدالله بن الزبير، في جماعة كبيرة، فأتى البحرين واستقر بها، وتسمى بأمير المؤمنين، ووجه إليه مصعب ابن الزبير خيلاً بعد خيل، وجيشًا بعد جيش، فهزمهم، وأقام نحو خمس سنين وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر وبعض أرض العراق.

ونقم عليه أصحابه أمورًا ـ قيل: منها أنه وجد ابنة لعمرو بن عثمان بن عفان قد وقعت في السبي، فاشتراها من ماله بمئة ألف درهم، وبعث بها إلى عبدالملك بن مروان ـ فخلعوه، ثم قتلوه. وقيل: قتله أصحاب ابن الزبير. والحروري نسبة إلى حروراء. موضع على ميلين من الكوفة، كان أول اجتماع الخوارج به، فنسبوا إليه. قال ابن تيمية: مما يدل على أن الصحابة لم يكفروا الخوارج أنهم كانوا يصلون خلفهم، وكان عبدالله بن عمر وغيره من الصحابة يصلون خلف نجدة الحروري. شذرات الذهب (٧٦/١) وتاريخ الإسلام (٨٨/٣).

(١) هو الوليد بن طريف بن الصلت التغلبي الشيباني: ثائر من الأبطال. كان رأس الشراة في زمنه. خرج بالجزيرة الفراتية، سنة ١٧٧هـ، في خلافة هارون الرشيد، وحشد جموعًا كثيرة، وكان يتنقل بين نصيبين والخابور وتلك النواحي، وأخذ أرمينية، وحصر خلاط، وسار إلى أذربيجان ثم إلى حلوان وأرض السواد، وعبر إلى غرب دجلة، وعاث في بلاد الجزيرة، فسير إليه الرشيد جيشًا كثيفًا مقدمه يزيد بن مزيد الشيباني، فأقام قريبًا منه يناجزه ويطاوله مدة، ثم ظهر عليه يزيد، فقتله بعد حرب شديدة. وهو الذي تقول أخته «الفارعة» في رثائه، من قصيدة: «أيا شجر الخابور ما لك مورقًا * كأنك لم تجزع على ابن طريف» وفيات الأعيان (١٧٩/٢) والوافي بالوفيات (٤٥٣/٧).

لـولا يـزيـد وأقـدارٌ بـذاك جـرت
عـاش الـوليـد مع الـغـاويـن أعـوامًـا

أو مع العامين أعوامًا.

إن هذا التشدد مدعاة لحصول التخالف والتناحر بين المسلمين، وشغلهم عن أعدائهم، وكلما ظهر التشدد في أوساط الأمة الإسلامية توقف غزوها لأعدائها؛ لأنها تنشغل بالحروب الداخلية فيما بينها، ويكفر بعضها بعضًا، فيرفع السيف على أعناقهم، وهذا ما حذر منه الرسول ﷺ فيما أخرج عنه البخاري عَنْ جَرِيرٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ لِجَرِيرٍ: اسْتَنْصِتْ النَّاسَ، فَقَالَ: «**لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»(١).

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»(٢)، وعن أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب حجة الوداع، رقم (٤٤٠٥)، ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا...**»، رقم (٦٥) عن جرير بن عبدالله (رضي الله عنه)، وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس وأبي بكرة (رضي الله عنهم). أخرجاه في الصحيح (٩٩ ـ ٦٣٦٠ ـ ٦٥٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨)، ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»، رقم (٦٤) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه).

فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟، قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[1].

فلذلك، لا بد أن تستيقظ الأمة لمحاربة هذه الظاهرة، وأن تعلم أن الحروب التي تقع في صفوف الأمة الإسلامية بسبب هذا التشدد، كلها إنما تصب في ميزان الأعداء، فهم الذين يربحون منها، يتوقف المد الإسلامي وينحسر، ويبقى الأعداء يتفرجون، ويصبون أسلحتهم وأسلحة الدمار في هذه الأمة، فتكون الأمة سوقًا للقتل والنهب، ينقل إليها هؤلاء صنائعهم، وما يصنعون من الأسلحة الفتاكة، وتكون ذات السوق الرائجة في الأمة، تعتصر طاقاتها وأموالها لصالح أعدائها، ويعمل هذا السلاح بين المسلمين، ويتوقف الجهاد في سبيل الله.

وقد حصل هذا مع الأسف في كثير من البلدان الإسلامية، وحصل في فترات طويلة من تاريخ هذه الأمة، وسببه هو هذا التشدد، وفي المقابل أيضًا فإنه في كثير من الأحيان يأتي التساهل الشديد فيكون سببًا لتعطل المسيرة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب «**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**»، فسماهم المؤمنين، رقم (٣١)، ومسلم في صحيحه: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨) عن أبي بكرة (رضي الله عنه).

فكم من بدعة ظهرت في هذه الأمة، حصل معها التساهل في شبابها وبدايتها ونعومة أظافرها، فلم ينكرها أحد، فأصبحت سنة لدى كثير من الناس، إذا أنكرت بعد هذا أصبح منكرها منكرًا للسنة.

إن كثيرًا من التساهل أيضًا يقتضي الانحراف في الأمة عن هذه الجادة، كثير مما نراه من سيئ الأخلاق والأعمال يظهر في البداية ضعيفًا، فلو أنكر لقضي عليه في بداية نشأته، ولم تبقَ له باقية، ولكن كثيرًا من الناس يتساهلون معه، ويتراجعون عن الأخذ بهذا الحق الواجب عليهم، فيقوى الباطل، ويشتد ساعده، وحينئذ يصبح معروفًا لدى كثير من الناس، ويصبح المعروف منكرًا لديهم، ومن هنا لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فيستمر هذا المنكر، ويظهر، وينتشر.

● رصاص المؤمن ليس على صدره

لا شك أن كثيرًا منكم يدركون زمانًا لم يكن الناس يتعاملون فيه بالربا الصريح، ولم تكن مؤسسات الربا قائمة في هذا البلد، فجاءت هذه المؤسسات بالتدريج، ولم تزل في ازدياد؛ لأنها لم يقم في وجهها، ولم ينكرها من بيده القرار، إن قيام المؤسسات الربوية الموجودة، مثل البنوك الربوية القائمة، مفسد لاقتصاد الناس ولأخلاقهم ولمعاملاتهم، ولكل أمورهم، وهو مفسد كذلك لعلاقتهم

بالله؛ لأن من يتعامل بهذا الربا لا يستجاب دعاؤه أبدًا، سواء كان آكلاً للربا، أم موكلاً له، أم شاهدًا عليه، أم كاتبًا له، فكل هؤلاء ملعونون، على لسان محمد ﷺ، كما في حديث جَابِرٍ، قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ: «**هُمْ سَوَاءٌ**»(١).

فهذه الظاهرة نشأت جديدة، فلم تجد من الإنكار ما يكفي، فظهرت وانتشرت، فأصبح منكرها اليوم ضاربًا في حديد بارد، ولا يستمع له أحد، والسبب أن هذه الظاهرة لم تنكر في بداية أمرها، وكذلك كثير من الظواهر الأخرى، مثل ظاهرة الاختلاط، ومثل ظاهرة التبرج، تبدأ ضعيفة قليلة، ثم تنتشر وتظهر، إذا لم تنكر، وهذه سنة الله (تعالى)، أن أية بدعة ظهر لها من ينكرها في بداية أمرها فستضمحل وستزول، وإذا لم تنكر فستصبح بلاء مبرمًا، يبتلي الله به أهل الأرض ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

إن كثيرًا مما نراه من المنكرات التي انتشرت في مجتمعاتنا، هو من البلاء والعقوبة التي أنزلها الله (تعالى)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: إلى قوله (وموكله) في كتاب البيوع، باب موكل الربا، رقم (٢٠٨٦)، وأخرجه مسلم عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) في صحيحه: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، رقم (١٥٩٨). وأخرجه أبو داود (٢٨٩٥) والترمذي (١١٢٧) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ. وأخرجه أحمد (٦٠١) عَنْ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْه).

حين لم تنكر هذه المنكرات في بداية نشأتها، فجعلها الله بلاءً بعد ذلك وقواها؛ ليمتحننا بها، إن الاعتدال في الحكم على الآخرين يقتضي عدم الإسراع إلى تكفير الناس، فمن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وصلى الصلوات الخمس إلى القبلة، وصام رمضان، وحج البيت إذا استطاع إليه سبيلاً، وأدى زكاة ماله، فهو المسلم؛ لأن هذه هي أركان الإسلام، وإن اجتهد في أمر آخر فأخطأ فيه، فإن كان أهلاً لهذا الاجتهاد يُعذَر بخطئه، وإن كان وقع فيه عن جهل يُعذر بجهله، وإن كان أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، أو فعل مكفرًا، أو سب الله ورسوله ﷺ، أو الدين، فإنه حكم على نفسه بالكفر.

أما من لم يصل إلى هذا المستوى فلا يحل تكفيره بوجه من الوجوه، بل تكفيره مثل قتله؛ لأنه ثبت عن رسول الله ﷺ في الصحيحين عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ**»[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب من كفّر أخاه بغير تأويل، فهو كما قال، رقم (٦١٠٥). ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه...، رقم (١١٠) عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ (رضي الله عنه).

قَالَ: «**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا**»[1] وفي رواية: «**أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ**»[2]، وفي هذا ثمانية أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ في الصحيحين، في منع تكفير من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وصلى الصلوات إلى القبلة، ولا يكفر إلا بفعل مكفر، أو قوله أو اعتقاده، وهذا التكفير سيكون حكمًا قضائيًّا.

فمن ارتد عن دين الإسلام يُستتَب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ويستتيبه المسلمون إذا سمعوا منه ذلك، ويشهرون به، وينكرون عليه، ويقيمون عليه الحجة، لكن لا يكفر إلا بعد إقامة الحجة عليه، وإهداء الطريق له، وكذلك التفسيق والتبديع، فهما مثل التكفير، لا يُعلَنان على أحد من المسلمين ما لم يجاهر بالمعصية والبدعة، وما لم تقم عليه الحجة، وما لم يبين له الصواب فيتمادى في الخطأ، إن الاعتدال في الحكم عن الناس، وعدم الإسراف في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب من كفّر أخاه بغير تأويل، فهو كما قال، رقم (٦١٠٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب من كفّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم (٦١٠٤). أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر، رقم (٦٠) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا).

معاملتهم، يقتضي منا أن ننظر بنظرة أهل السنة والجماعة المعتدلة.

فأهل السنة والجماعة في كل العصور في حكمهم على الناس يعتدلون، فهم في الفتنة بين الصحابة (رضوان الله عليهم)، يوالونهم أجمعين، ولا يعادون أحدًا منهم، ويعلمون أن أدنى الطائفتين للحق هي الطائفة التي فيها علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ويسكتون عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ، ويعلمون أن من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة فهو من أهل الجنة، ولو فعل ما فعل، فالزبير، وطلحة، وعائشة (رضي الله عنهم) أجمعين كلهم من أهل الجنة، يجب الإيمان بذلك.

ولهذا قال رسول الله ﷺ في حاطب: «**إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ (عز وجل) اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1]، وقال في أهل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير (سورة الممتحنة)، باب (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء)، رقم (٤٨٩٠)، ومسلم في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر (رضي الله عنهم)، وقصة حاطب بن أبي بلتعة، رقم (٢٤٩٤) عَنْ عَلِيٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَأَبَا مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ وَكُلُّنَا فَارِسٌ، فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ**»، قَالَ: فَأَدْرَكْنَاهَا =

النهر nhr-azb

الشجرة: «**لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»(١)

= تَسِيرُ عَلَى جَمَلٍ لَهَا... الحديث وفيه: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، قَالَ: فَقَالَ: «**يَا عُمَرُ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ...**» فذكره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في مجموع الفتاوى بعد ذكره حديث حاطب (٤/٤٦٠): وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِهَؤُلاَءِ السَّابِقِينَ - كَأَهْلِ بَدْرٍ وَالْحُدَيْبِيَةِ - مِنْ الذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَجِهَادِهِمْ؛ مَا لاَ يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بِهَا، كَمَا لَمْ تَجِبْ مُعَاقَبَةُ حَاطِبٍ مِمَّا كَانَ مِنْهُ. وَهَذَا مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ مَا جَرَى بَيْنَ عَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَنَحْوِهِمْ: فَإِنَّهُ إمَّا أَنْ يَكُونَ اجْتِهَادًا لاَ ذَنْبَ فِيهِ فَلاَ كَلاَمَ. فَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**». وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ ذَنْبٌ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ هَؤُلاَءِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، وَغَفَرَ لَهُمْ مَا فَعَلُوهُ؛ فَلاَ يَضُرُّهُمْ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مَن الذُّنُوبِ إنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ ذَنْبٌ؛ بَلْ إنْ وَقَعَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ كَانَ اللَّهُ مَحَاهُ بِسَبَبِ قَدْ وَقَعَ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يُمَحِّصُ اللَّهُ بِهَا الذُّنُوبَ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَابَ فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَوْ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ تَمْحُو السَّيِّئَاتِ، أَوْ يَكُونَ قَدْ كَفَّرَ عَنْهُ بِبَلاَءِ ابْتَلاَهُ بِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ غَمٍّ وَلاَ حَزَنٍ وَلاَ أَذًى إلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ مِنْ خَطَايَاهُ**». وَأَمَّا مَنْ بَعْدُ هَؤُلاَءِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ وَهُم الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ فَهَؤُلاَءِ دَخَلُوا فِي قَوْله تَعَالَى ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وَفِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، وَقَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَمْرُو بْنُ العاص وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ الحجبي وَغَيْرُهُمْ.

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب السنة، باب في الخلفاء، رقم (٤٦٥٣). والترمذي في سننه: كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل من بايع تحت الشجرة، رقم (٣٨٦٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. =

فليفعلوا ما شاؤوا، فهم من أهل الجنة، يجب الإيمان بذلك، ومن كان من أهل الجنة باليقين فكيف تنكر عليه أنت بعض أفعاله، وأنت لا تدري هل أنت إلى جنة أو إلى نار؟.

فلهذا، كان مذهب أهل السنة والجماعة بهذا الاعتدال، ليسوا مثل الشيعة؛ الذين يوالون بعض الصحابة، ويرفضون البقية ويكفرونهم، فيقولون: إن أصحاب محمد ﷺ قد ارتدوا إلا ستة فقط وعلى غاية الغلو والإسراف، وليسوا مثل النواصب؛ الذين يعادون عليًّا (رضي الله عنه) ويجعلونه من المفسدين؛ الذين أفسدوا الدين، وأدخلوا فيه التأول، وحكّموا الرجال في كتاب الله، بل يعلمون أن أصحاب رسول الله ﷺ هم خير هذه الأمة، وهم أولى بشفاعة رسول الله ﷺ، وأنهم غير معصومين، يخطئون ويصيبون.

وأن من أصاب منهم فبتوفيق الله (تعالى)، وقد أعلى الله منزلته بذلك، ومن أخطأ منهم فعن اجتهاد وطلب للحق، وليس ذلك عن سوء عمل، ولا سوء نية، فهو مغفور له، ويسألون الله لهم الرضوان والمغفرة أجمعين، ولا يعادون أحدًا منهم، وهذا هو المذهب المعتدل في التعامل مع الصحابة، وكذلك في التعامل مع علماء الأمة، فإن كثيرًا

= والنسائي في الكبرى (٦/٤٦٤) وأحمد (١٤٢٥١) وابن حبان (٤٨٨٩) من طرق عن اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فذكره.

قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

من الناس يغلو فيهم حتى يجعل أقوالهم معارضة لأقوال الرسول ﷺ.

● أئمة يقدَّرون ولا يقدَّسون

كثير من الناس يغلو في الأئمة المجتهدين إذا قيل له: هذا كلام الله، هذا كلام رسول الله ﷺ، يقول: ماذا قال مالك، أو ماذا قال الشافعي، أو ماذا قال أحمد بن حنبل؟، وكأنه يرمي كلام الله وكلام رسوله ﷺ إلى عرض الحائط، وهذا غلط في التصور، فهؤلاء ليسوا آلهة ولا أنبياء، وإنما هم علماء أيدهم الله (تعالى) بالفهم في دينه، واستغلهم لإرشاد الناس إلى طرق الحق، وأراهم وجهًا من أوجه الهداية يتعاملون به مع النصوص الشرعية، وكلهم ساعٍ لفهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ولو عرض على أي أحدٍ منهم كلام الله، أو كلام رسوله ﷺ لم يكن ليخالفه، بوجه من الوجوه.

فهذا الشافعي رحمه الله[1] يقول: (إذا صح الحديث

---

(١) هو محمد بن أدريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السايب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي الإمام أبو عبدالله الشافعي، المكي الفقيه المطلبي، نسيب رسول الله ﷺ، ولد سنة خمسين ومائة بغزة، وقيل باليمن، وقيل بعسقلان، وغزة أصح، وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين، فنشأ بها، وأقبل على الأدب والعربية والشعر فبرع في ذلك، وحبب إليه الرمي حتى فاق الأقران، وصار =

فهو مذهبي)[1] وهذا مالك رحمه الله[2] يقول: (ما منا أحد إلا وهو راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ)[3] وهذا أبو حنيفة رحمه الله[4] يقول: (ما جاء عن رسول ﷺ فعلى

= يصيب من العشرة تسعة، ثم كتب العلم، لقي جده شافع رسول الله ﷺ وهو مترعرع، وكان أبوه السايب صاحب راية بني هاشم يوم بدر فأسر وفدى نفسه، ثم أسلم لما حملت به أمه رأت كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقض بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية فتأول المعبرون أنه يخرج منها عالم يخص علمه أهل مصر، ثم يتفرق في سائر البلدان، وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: يا أبه، أي رجل كان الشافعي؟، فإني سمعتك تكثر الدعاء له، فقال: يا بني، كان الشافعي للدنيا كالشمس، وكالعافية للناس، فهل رأيت لهذين من خلف، أو منهما عوض. الوافي بالوفيات (١/٢٢٢).

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/٣٥) ويروى عنه أيضًا: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثًا فلم أقل به. ويروى: كل حديث عن النبي ﷺ فهو قولي، وإن لم تسمعوه مني. مناقب البيهقي ١/٤٧٥.

(٢) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي الحميري، أبو عبدالله المدني الفقيه، إمام دار الهجرة، ورأس المثقفين وكبير المتثبتين، قال عنه الإمام البخاري: أصح الأسانيد كلها: مالك عن نافع عن ابن عمر، ولد سنة ثلاثًا وتسعين، وتوفي سنة تسعة وسبعين ومائة. تهذيب التهذيب (٨/٢٢٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/٧٣).

(٤) هو النعمان بن ثابت التيمي الكوفي أبو حنيفة إمام الحنفية الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عمد أهل السنّة، ولد ونشأ بالكوفة، وكان يبع الخز ويطلب العلم في صباه، قال الإمام مالك يصفه: رأيت رجلاً لو كلمته في السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته، وقال الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. ولد سنة ثمانين في حياة صغار الصحابة، ورأى أنس بن مالك لمّا قدم عليهم الكوفة، ولم يسمع عن أحد من الصحابة. سير أعلام النبلاء (٦/٣٩٠) والأعلام للزركلي (٦/٣٦).

الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة اخترنا، وما كان غير ذلك فهم رجال ونحن رجالٌ)[1] وكذلك نجد مالكًا (رحمه الله) كان لا يرى صلاة الركعتين قبل المغرب؛ لما جاء فيهما قول الرسول ﷺ: «**صَلُّوا قَبْلَ صَلاَةِ الْمَغْرِبِ، قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: لِمَنْ شَاءَ؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتَّخِذَهَا النَّاسُ سُنَّةً**»[2] وهذا الحديث صحيح، ولكن اختلف في فهمه، فإن مالكًا (رحمه الله) يرى أن قول الرسول ﷺ (صلوا قبل المغرب ركعتين في المرة الأولى والثانية والثالثة) لا يقتضي الوجوب؛ لأنه ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: «**ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ، فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**»[3].

فلا فرض من الصلاة إلا هذه الخمس، فلما قال: صلوا قبل المغرب ركعتين، كان ذلك للندب، فلما قال بعد الندب: لمن شاء، نزل هذا الحكم عن الندبية، وإذا نزل الحكم عن الندبية فلن يصل إلى الإباحة المستوية الطرفين،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/٤٠١) الوافي بالوفيات (٧/٣٥١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التهجد (الصلاة)، باب الصلاة قبل المغرب، رقم (١١٨٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ (رضي الله عنه).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا).

لأن العبادة لا تكون مباحة، وإنما يصل إلى حد الكراهة، وهذا مذهب مالك (رحمه الله) لكنه كان ذات يوم في مسجد رسول الله ﷺ وقت أذان المغرب، فأذن المؤذن، ثم لم تقم الصلاة، فأتاه صبي صغير فقال: يا أبا عبدالله ألا تركع؟، فأحرم مالك، وصلى ركعتين، فاستغرب الناس ذلك، وظنوا أن اجتهاده قد تغير في هذه المسألة، فأتوه، فسألوه، فقال: خشيت أن أكون من الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون.

وكذلك من احترامه لحديث رسول الله ﷺ أنه جعل للحديث مجلسًا غير مجلس المسائل، مسائل الفقه، فكان إذا جاءه طلاب العلم قال للجارية: هل هم من أصحاب الحديث أم من أصحاب المسائل؟، فإن كانوا من أصحاب الحديث خرج إلى مجلس الحديث، وأمر بالعود والعطر فوقد في المجلس، ولبس ثيابه البيضاء، وجلس على كرسيه، وحدث عن رسول الله ﷺ، وإذا كانوا من أصحاب المسائل استقبلهم كما هو، في مجلسه الذي كان فيه[1] ويقول ابن عبدالبر[2]: إنه لسعته عقرب ست عشرة مرة وهو يحدث

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/٩٣) ترتيب المدارك (١/٨٩ ـ ١٠٢).

(٢) هو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي المالكي، أبو عمر: من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، بحاثة.
يقال له حافظ المغرب. ولد بقرطبة، ورحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقيها، وولي قضاء لشبونة وشنترين، وتوفي بشاطبة. =

بحديث رسول الله ﷺ، فلم يقطع الحديث؛ إجلالاً لرسول الله ﷺ.

وكذلك خرج ذات يوم إلى البقيع، فسأله رجل عن حديث في الطريق، فقال: يا أبا عبدالله، ألا تحدثنا بالحديث الذي ترويه عن فلان، فقال: من هذا الذي يسأل عن حديث رسول الله ﷺ في الطريق؟، اجلدوه عشرين سوطًا، فقيل له: يا أبا عبدالله إنه قاضي المدينة، فقال: القاضي خير من أُدِّبَ، فجلدوه عشرين سوطًا، ثم رحمه، ودعاه إلى بيته، فحدثه بكل سوط حديثًا، فقال القاضي: ليته جلدني مائة، فحدثني مائة حديث[1]؛ ولذلك قال بشر الحافي[2]: (إن من زينة الدنيا أن يقول الرجل: حدثنا مالك)[3]، فذلك الزمان من زينة الدنيا وفخرها أن يقول الرجل: حدثنا مالك.

= من كتبه «الدرر في اختصار المغازي والسير» و«العقل والعقلاء» و«الاستيعاب» مجلدان، في تراجم الصحابة، و«جامع بيان العلم وفضله» و«المدخل» في القراآت، و«بهجة المجالس وأنس المجالس» و«التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» كبير جدًّا، وغيرها. الأعلام للزركلي (٨/٢٤٠).

(١) بهجة المجالس (١/٢٤٥).

(٢) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبدالرحمٰن المروزي، أبو نصر، المعروف بالحافي: من كبار الصالحين. له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل (مرو) سكن بغداد وتوفي بها. قال المأمون: لم يبق في هذه الكورة أحد يستحيى منه غير هذا الشيخ، بشر بن الحارث. تاريخ بغداد (٧/٦٧ ـ ٨٠) وصفة الصفوة (٢/١٨٣).

(٣) ترتيب المدارك (١/٥٠) والديباج المذهب (١/١٢).

ومع ذلك فإن مالكًا (رحمه الله) يقول: لو أدركتم ما أدركت لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، فقد أدركت جعفر بن محمد[1] وكان ذا دعابة، فإذا حدثنا عن رسول الله ﷺ بكى حتى كأنه ما عرفك ولا عرفته، وأدركت محمد بن المنكدر[2] وكان إذا حدثنا عن رسول الله ﷺ بكى حتى رحمناه وخرجنا عنه، إن من كان هذا أدبه مع رسول الله ﷺ لا يمكن أن يعارض قول رسول الله ﷺ بقوله، وإن هؤلاء الغلاة في الأئمة يقابلهم آخرون أيضًا يفرطون فيهم، فيجعلون هؤلاء الأئمة كأنهم من الطواغيت وأعداء الحق.

فتسمعون أحد رؤساء الدول في زماننا هذا يقول: إن

---

(١) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبدالله، الملقب بالصادق: سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان من أجلاء التابعين. وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق؛ لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. له أخبار مع الخلفاء من بني العباس وكان جريئًا عليهم صداعًا بالحق. له (رسائل) مجموعة في كتاب، ورد ذكرها في كشف الظنون، يقال: إن جابر بن حيان قام بجمعها. مولده ووفاته بالمدينة. الأعلام للزركلي (٢/١٢٦).

(٢) هو محمد بن المنكدر بن عبدالله بن الهدير (بالتصغير) بن عبد العزى القرشي التيمى (من بني تيم بن مرة) المدني: زاهد، من رجال الحديث. من أهل المدينة. أدرك بعض الصحابة وروى عنهم. له نحو مئتي حديث. قال ابن عيينة: ابن المنكدر من معادن الصدق. كان في غاية الإتقان والحفظ والزهد حجة، قال أبو حاتم وطائفة: ثقة، وروى عنه الجماعة وتوفي سنة ثلاثين ومائة. الوافي بالوفيات (٢/١١٧) تاريخ الإسلام للذهبي (٥/١٥٥ ـ ١٥٨).

أسباب الفتنة وحصول الشقاق بين الأمة هم المجتهدون الأربعة أئمة الاجتهاد، أين هو من أئمة الاجتهاد؟، إن الذي قال هذا يصدق عليه حديث الْمِقْدَام بْنِ مَعْدِيكَرِبَ الْكِنْدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يُحَدَّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ (عز وجل)، مَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلاَ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ**»[1].

إن هؤلاء الذين ينظرون إلى الأئمة هذه النظرة المزرية، ويرونهم أعداء للحق، ويرون الاجتهاد الذي أتوا به دينًا بشريًّا مخالفًا للدين الذي جاء به محمد ﷺ، قد ظلموهم،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٤)، والترمذي في سننه: كتاب العلم، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ، رقم (٢٢٦٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجه (١٢) وأحمد (١٦٥٤٦) والطبراني في الكبير (٢١٨/١٥) والحاكم (٣٦٢/١) من طرق عَنْ حَرِيزِ بْنِ عُثْمَانَ عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَوْفٍ عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: فذكره.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.
وله شاهد من حديث العرباض بن سارية السلمي. أخرجه أبو داود (٣٠٥٠) ومن حديث أبي رافع. أخرجه أحمد (٢٤٣٦٢) والترمذي في سننه: كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ (٢٦٦٣) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح. ومن حديث أبي هريرة. أخرجه ابن ماجه (٢١).

ويترتب على قولهم هذا إفساد كبير لهذ الدين، فإن آيات القرآن المنزل من عند الله لا تتجاوز ستة آلاف ومئتين وأربعة وثلاثين آية بالعد المدني، وآيات الأحكام منها ما تتجاوز خمس مئة آية، وأحاديث رسول الله ﷺ المروية عنه لا تتجاوز الثلاث مئة ألف حديث، وأحاديث الأحكام منها لا تتجاوز أحد عشر ألف حديث، وإن النوازل والوقائع كل يوم تتجدد، فلو اقتصرنا على النصوص فقط، ولم نأخذ بما سواها، لهدمنا أكثر من ثلثي الدين، لو اقتصرنا على مورد النص فقط، وتركنا دلالاته، كم يبقى من الدين الإسلامي؟، لا يبقى منه شيء.

ومن هنا؛ فإن اجتهاد هؤلاء الأئمة هو علم اقتصاد الشريعة، فعلم الاقتصاد في علوم الدنيا هو العلم الذي يمكن من خلاله تغطية الحاجيات غير المحصورة من الموارد المحصورة، راتب الشخص محصور وحاجياته غير محصورة، يمرض له إنسان فيحتاج إلى دواء، ويأتيه ضيف مفاجئ، فالراتب محصور والنوازل التي تتجدد والحاجيات غير محصورة، فالعلم الذي يمكنه من ترتيب الأولويات، وتغطية هذه الحاجيات غير المحصورة من الموارد المحصورة هو في علوم الدنيا علم الاقتصاد.

أما في الشريعة فإن نصوص الوحي محصورة، لا يمكن أن يزاد الوحي بحرف واحد، بعد موت رسول الله ﷺ، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، والمقصود بالدين الوحي، فلا وحي بعد موت رسول الله ﷺ، لكن الوقائع والنوازل تتجدد كل يوم، وأحكامها موجودة في الوحي الذي نزّل، لكن لا يمكن أن يأخذها منه إلا العالمون؛ لقول الله (تعالى): ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، لم يهيئ الله (تعالى) كل الناس للتلقي عنه، وللفهم من كتابه، ولا يمكن أن يكون الناس سواسية في التلقي عن الله، وعن رسوله ﷺ.

بل إن أصحاب رسول الله ﷺ وهم خير جيل من هذه الأمة، لم يمارس الاجتهاد منهم والإفتاء إلا ثمانية عشرة فقط من أصحاب رسول الله ﷺ، هم الذين بلغوا رتبة الاجتهاد، وهذا يقتضي منا أن نعلم أن الاجتهاد أمر شاق، ويحتاج إلى جهد جهيد، وعلم غزير، واطلاع على نصوص الشرع، واطلاع على واقع الناس، لا يتوفر لأكثر الناس، ومن هنا فإن الذين عُرِفوا بالعدالة والعلم من مجتهدي هذه الأمة ينبغي أن يبقى لهم احترامهم، ولكن مع ذلك لا يؤلهون، ولا يخالَف بهم كلام رسول الله ﷺ.

إن هؤلاء الأئمة أهل أمانة ورفعة وعدالة، وأجمعت الأمة على عدالتهم وثقتهم، ومع ذلك لا يجب أن نعتقد أن الحق في قولهم، ولا أن نعتقد أن الحق محصور في مذهب أحدهم، أو في مذاهبهم كلهم، بل كل أحد منهم يخطئ ويصيب، والحق المقطوع به هو ما نزل به الوحي، أما ما

سواه فهو فهم أوتيه رجل في كتاب الله، كما قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فقد ثبت في الصحيح عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: (قُلْتُ لِعَلِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِن الْوَحْيِ إِلاَّ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟، قَالَ: لاَ وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلاَّ فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلاً فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟، قَالَ: الْعَقْلُ، وَفَكَاكُ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ)[1].

أما اجتهادات هؤلاء الأئمة فإن فيها الصواب وفيها الخطأ، وخطؤهم هم معذورون فيه، ويثابون عليه ثوابًا واحدًا، وصوابهم هم مأجورون فيه، ويثابون عليه ثوابين، كما في حديث عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[2]. فعلى كل هم ناجون باجتهادهم، ويجب احترامهم بقدر ما يحملونه من الدين، فهم أوعية هذا الوحي، ولم يكن الله ليجعل هذا الوحي بدار

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧)، وأخرج مسلم بعضه بمعناه في صحيحه: كتاب الحج، باب فضل المدينة...، رقم (١٣٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم في صحيحه: كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (١٧١٦) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنه).

هوان، من اختاره الله للتبليغ عنه لا يمكن أن يكون عدوًّا لله، هل يمكن أن يكون أحد هؤلاء الأئمة الذين اختارهم الله لتبليغ رسالة محمد ﷺ عدوًّا لله مفسقًا فاسقًا؟ لا يمكن أن يتم هذا؛ لأن الله يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة، وهو الذي وضع لهم القبول في الأرض، وهو الذي جعل الناس يحبونهم؛ فلذلك لا يمكن أن يكونوا أهل فجور وفسوق، بل هم أهل عدالة وأمانة، ومع ذلك هم غير معصومين، يخطئون ويصيبون، فلا بد من هذه النظرة المعتدلة للأئمة.

وكذلك في علماء كل عصر، فالعلماء هم حجة الله في الأرض، لكن مع هذا لا ينبغي الإفراط فيهم، وجعلهم فوق مستوى النقد، أو فوق مستوى التقويم، أو فوق مستوى أن يعلم أنهم غير معصومين، وأنهم يخطئون ويصيبون، وكذلك ينبغي ألا نفرط فيهم، بل نعلم أنهم قد اختارهم الله لتحمل الوحي، وجعل فيهم ثقة المسلمين، فيحترمون بهذا الاحترام؛ الذي جعل الله لهم، ونحن نعلم المنزلة العظيمة التي أحلهم الله، في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١]، وفي قوله (تعالى): ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، وفي قوله (تعالى): ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

فهذه المنزلة العالية نعلم أنها للعلماء، ونحترمهم بها، ولكن مع ذلك لا يجعلنا هذا نغلو فيهم، ونجعلهم رسلاً من عند الله، أو معصومين، أو لا يخطئون، بل نحن نعلم أن المعصوم من هذه الأمة محمد ﷺ وحده، ليس أبو بكر معصومًا، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي، كلهم يخطئون ويصيبون، يؤخذ من قولهم ويرد ما رووه، فالثقة بهم تقتضي تصديقهم في كل ما رووه، أما ما رأوه واجتهدوا فيه فلا بد فيه من البحث، ومتى ما رأيت أنت أنه يوافق الصواب، وعرفت دليله، فأنت ملزم به؛ لأن العمل بالراجح واجب لا راجح، وما لم تعلم دليله، وعلمت الدليل المخالف له، فأنت ملزم باتباع الدليل لا باتباع فلان من الناس.

ومن هنا، فالنظر في تعاملنا مع هؤلاء الأئمة إلى مكان الحاجة، متى نحتاج إليه، إذا جاءك نص من كتاب الله (عز وجل)، فهمته بلسان عربي مبين، ولم تتحير في فهم كلمة واحدة منه، فإنك لا تحتاج أن يأمرك أحد بأن تفعل ما أمرك الله به، هذا نص من كتاب الله المعصوم، نزل به الروح الأمين، على قلب محمد ﷺ، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، هل تحتاج

لأن يقول لك إنسان: اعمل، بل ما قال الله لك، وتترك ما قال الله حتى يأمرك به فلان من الناس، لا تحتاج إلى هذا.

إذا جاءك حديث صريح عن رسول الله ﷺ ينهاك عن أمر، أو يأمرك بأمر، وفهمته على مقتضاه، وقد صح لديك، هل تحتاج إلى أن يقول لك إنسان: أطع رسول الله ﷺ في الأمر الفلاني؟، لا تحتاج إلى هذا، قد أمرك الله بطاعته، وشرطها عليك في كتابه، وقال (تعالى): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، لكن إذا جاءك نص من كتاب الله لم تفهم معناه فاذهب إلى العلماء لقول الله (تعالى): ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ولذلك يقول الله (تعالى): ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣]، أولي الأمر هم العلماء، فلو ردوا إليهم هذا الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم، ولم يقل لعلموه جميعًا، بل قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ فقط هم المؤهلون للفهم عن الله، وعن رسوله ﷺ.

وإذا تعارض لديك نصان، فوجدت نصًّا مقتضاه الأمر ونصًّا مقتضاه النهي، حينئذ لا بد أن تبحث وتسأل العلماء؛

لأنك قد ترددت في الأمر، وهذا هو موقع حاجتك إلى هؤلاء المجتهدين العلماء، إنما تحتاج إليهم عند عدم فهم النص، أو عند تعارض النصوص، وكذلك إذا وجدت مسألة لم تجد فيها نصًّا، فلم تتطلع على نص من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع يتعلق بها، فعليك أن تذهب إلى العلماء، فهذه ثلاث مسائل ترجع فيها إلى كلام العلماء، أما ما وجدت فيه نصًّا من كتاب الله، أو من كلام رسوله ﷺ، أو كان موقع إجماع، فلا تسأل عنه أحدًا، بل خذ وتلقَّ عن الله، ولتكن أشرف ما تكون عندما تستقبل كلام الله (عز وجل) وتطبقه.

إن المؤمن إذا سمع قول الله (تعالى): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فاعلم أنه معني مقصود بهذا الخطاب، داخل في خطاب الله للذين آمنوا به، وقد نال منزلة من الشرف عظيمة جدًا؛ لأنه يعتقد نفسه الآن كليمًا لله، لكن أهل الإيمان أجمعين إذا قرأوا، وتدبروا كلام الله، وجدوا فيه الخطاب لهم، وعلموا أنهم مخاطبون به، فإنهم سيكونون جميعًا قد كلمهم الله بهذا المعنى، وهذه منزلة عالية جدًا، تختص بأهل الإيمان وحدهم، أما أهل الكفر فلا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم.

إن الذي يسمع قول الله (تعالى): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١﴾

[الصف: ١٠ ـ ١١]، ويعلم أنه مخاطب بهذه الآية داخل في عموم الذين آمنوا ينال بهذا منزلة عالية كبيرة جدًا، حين كان من الذين خاطبهم الله بكلامه، وأرسل إليهم هذا الرسول الكريم ﷺ، إن هذه المنزلة العالية من منازل الإيمان مقتضية للتدبر في القرآن، والارتباط به، والارتباط بالسنة، وعدم هجرهما وتركهما ظهريًّا، كما يفعله كثير من الناس، إنه ـ مع الأسف ـ نجد أن سبب ظاهرة الغلو؛ التي تقتضي رغم كل اجتهاد المجتهدين، هو تقصير كثير من الناس في البحث عن الكتاب والسنة.

إن كثيرًا من الناس يقاطع الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في أي تصرف من تصرفاته، ولا في أية نازلة تعرض له، وهذا مع الأسف نبذ للكتاب والسنة وراء الظهر، وقد قال الله (تعالى): ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠]، إن كثيرًا من الناس يظن أن القرآن إنما هو للتبرك فقط، ومُنْزَل لأن يُتَّخَذ تَعاويذ، تُعَلَّق على رِقَاب المجانين والمعتوهين، أو زخارف تُزَيَّنُ بها البيوت، أو مصاحف توضع على الرفوف فقط، ولا يرجع إليه في حكم، وهذا غاية في الخطأ.

إن هذا الكتاب هو دستور الحياة في البشرية بكاملها، فعن علي (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَلاَ إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**»، فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «**كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ**

مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَن ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ ـ ٢] **مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»**[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، رقم (٢٩٠٦). وأحمد (٧٠٤) وابن أبي شيبة (١٦٤/٧) وابن أبي حاتم (١٤٧/١٤) والدارمي في السنن (٣٣٩٤). والطبراني في المعجم الكبير (٤٩١/١٤)، رقم (١٦٥٨٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٤/٧): رواه الطبراني وفيه عمر بن واقد وهو متروك، والبيهقي في الشعب (٤٥٠/٤) من طريق حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْجُعْفِيُّ قَال: سَمِعْتُ حَمْزَةَ الزَّيَّاتَ عَنْ أَبِي الْمُخْتَارِ الطَّائِيِّ عَن ابْنِ أَخِي الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ عَن الْحَارِثِ قَالَ: مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الأَحَادِيثِ فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلاَ تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الْأَحَادِيثِ؟، قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟، قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: فذكره.

قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ (حديث حمزة الزيات)، وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ وَفِي حديث الْحَارِثِ مَقَالٌ.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٩١/١٤) من وجه آخر من طريق عَمْرُو بن وَاقِدٍ، عَنْ يُونُسَ بن مَيْسَرَةَ بن حَلْبَسٍ، عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلانِيِّ، عَنْ =

ومع الأسف إن كثيرًا ممن ينتسبون للعلم، ويتصدرون للإفتاء بين الناس، لا يستدلون على حكم واحد بآية واحدة من كتاب الله، ولا يروون حديثًا واحدًا عن رسول الله ﷺ يتقاضى إليه الناس، أو يستفتونه في أمورهم، ولم يقرأ موطأ مالك يومًا واحدًا، ولا صحيح البخاري، ولا صحيح مسلم، ولم يطلع على شيء من أحاديث الرسول ﷺ، وإن من كان هكذا ينبغي أن يستحي من أن يتصدر للناس، ولهذا يقول أحد العلماء:

أعلمًا ولم تحفظ من النور آية

ولم ترِ حرفًا من حديث ابن عبدَمِ

فلذلك كانت ردة الفعل هذه عنيفة، ومخالفة للهدي المستقيم، وللتوازن والاعتدال في التعامل، إن هذا التوازن والاعتدال لا يختص بالأمور الدينية، بل هو كذلك قيمة ربانية في الأمور الدنيوية، إن المسلم في هديه وسلوكه ودله مخاطب بالتوازن والاعتدال، فالإنسان مركب من عناصر، فيه عنصر الروح التي هي غيبية من أمر الله، وعنصر البدن، وعنصر العقل، وهو مخاطب بالتوازن بين هذه العناصر الثلاثة، والعدل بين مساحتها، وما تأخذه من حياته واهتماماته.

= مُعَاذِ بن جَبَلٍ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا الْفِتَنَ فَعَظَّمَهَا وَشَدَّدَهَا، فَقَالَ عَلِيُّ بن أَبِي طَالِبٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا الْمَخْرَجُ مِنهَا؟ فَقَالَ: فذكره.

وكذلك لا بد من الاعتدال والتوازن بالعلم والعمل، فكثير من الناس يرى أن الوقت ينبغي أن يُصرف كله للعبادة فقط، وينقطع لذاته، ويترك طلب العلم، وهذا خطأ، وفي المقابل كثير من الناس يرى أن الوقت ينبغي أن يُصرف للدراسة فقط، فيدرس العلم، ونجده مقصرًا في العمل بما تعلم، وهذا خطأ واختلال في التوازن، لا بد من التوازن بين الأمرين، كلما ازداد الشخص علمًا ازداد عملاً، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون، فهذا أبو عبدالرحمٰن السلمي رحمه الله (تعالى)[1] وكان من أئمة التابعين، يقول: حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ)[2].

---

(١) هو عبدالله بن حبيب بن ربيعة أبو عبدالرحمٰن السلمي الضرير مقرئ الكوفة، ولد في حياة النبي ﷺ ولأبيه صحبة، إليه انتهت القراءة تجويدًا وضبطًا، أخذ القراءة عرضًا عن عثمان بن عفان و«علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهم». قال ابن مجاهد: أول من أقرأ الناس بالكوفة بالقراءة المجمع عليها أبو عبدالرحمٰن السلمي، وهو الراوي عن عثمان عن النبي ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»، وكان يقول: هذا الذي أقعدني هذا المقعد، ولا زال يقرئ الناس من زمن عثمان إلى أن توفي سنة أربع وسبعين وقيل سنة ثلاث وسبعين. النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (١/١٨٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٢٣٨٤) من حديث رجل من أصحاب =

وكذلك، فإن الإنسان إذا أفنى عمره في طلب العلم، والتفرد له، متى يؤدي حق هذا العلم وزكاته؟، ومتى يبلغه؟ ومتى يعمل به؟، إن كثيرًا من الناس ينفذ أوقات الطاقة والنشاط والقوة، أوقات الشباب، في الانفراد للعبادة، أو الانفراد للتعلم، ويدع في المقابل الطرف الآخر، وهو يمني نفسه أنه سيتفرغ له يومًا من الأيام، أو سيناله في وقت من الأوقات، وهذا هو طول الأمل؛ الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ.

• ولا تجعل الدنيا أكبر همنا

وكذلك، لا بد من الاعتدال في طلب الدنيا، فكثير من الناس يستغرق وقته في طلب الدنيا، يبكر بكور الطير على الأسواق؛ التي هي أبغض البقاع إلى الله، ويكون أول داخل لها، وآخر خارج منها، وكذلك كثير من الناس يجعل

= النبي ﷺ وعبدالرزاق (٣/٣٨٠) من طريق عَطَاءٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: فذكره.

قال الهيثمي في المجمع (١/١٦٥): رواه أحمد وفيه عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره. وروي من طريق شاذان الأسود بن عامر، ثنا شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبدالرحمٰن، عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: «كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم من العشر التي أنزلت بعدها حتى نتعلم ما فيها» أخرجه البيهقي في السنن (٣/١١٩ ـ ١٢٠) وفي الشعب (٤/٤٦٤) والحاكم (٥/١١٠). قيل لشريك من العمل؟، قال: «نعم». قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

وقته كله مستغرقًا منهكًا في البحث عن المكاسب الدنيوية، من مختلف الأوجه، في أحسن الظروف يكون باحثًا عن الحلال فقط، لكن أفنى فيه أكثر مما يستحق، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنه ليس شيء يقربكم من الجنة، ويباعدكم من النار، إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم من النار، ويباعدكم من الجنة، إلا قد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته**»[1].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢٩/٨) وعبدالرزاق (١٢٥/١١) والبيهقي في الشعب (٣١٠/٢١) والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٦٨) من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن زبيد، وعبدالملك بن عمير، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: فذكره. قال الحافظ في «المطالب» (٢٤٥/١): فيه انقطاع.

وأخرجه الحاكم (٤/٢) من طريق سعيد بن أبي هلال عن سعيد بن أبي أمية الثقفي عن يونس بن بكير عن ابن مسعود مرفوعًا به. وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وللحديث شاهد من طريق الشافعي، حدثنا عبدالعزيز بن محمد، عن عمرو بن أبي عمرو، مولى المطلب، عن المطلب بن حنطب، أن رسول الله ﷺ قال: فذكر نحوه. أخرجه الشافعي كما في ترتيب المسند (١٣/١) ومن طريق البيهقي في الشعب (٢٣٩/٣). وشاهد آخر عن حذيفة نحوه. أخرجه البزار في مسنده (٣٩١/٧)، رقم (٢٥٣٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٧١/٤): رواه البزار وفيه قدامة بن زائدة بن قدامة ولم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات.

لا يمكن أن يزداد رزق الإنسان مهما بذل، ولا يمكن أن يحال بينه وبين ما كتب له، كم شاهدنا من الناس الذين أنفقوا أعمارهم بكاملها، في البحث وراء الدنيا، وماتوا فقراء، وكم شاهدنا من الناس الذين ما أنفقوا إلا وقتًا يسيرًا في جمع المال، وأصبحوا من الأغنياء، وهم في شبابهم ونعومة أظافرهم، إن هذه الدنيا ينزلها الله بقدر، كما قال (تعالى): ﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشورى: ٢٧]، فعلى الناس أن يجملوا في الطلب، وأن يعلموا أن هذا الرزق هو مثل الظل، كما قال الحكيم:

مَثَل الرزق الذي تطلبه
مَثَل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه متبعًا
فإذا وليت عنه تبعك

فلذلك، ينبغ ألا تأخذ الدنيا أكثر وقتهم، وألا تكون أكبر همهم، ولا مبلغ علمهم، كما كان في دعاء رسول الله ﷺ؛ الذي أخرجه الترمذي في السنن، من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: (قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاَءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: **«اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا،**

وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلاَ تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا»)[1].

إن دعاء الرسول ﷺ هنا تعليم لنا، لأن نعلم قيمة هذه الدنيا، فلا نهجرها، ولا نترك السعي فيها، ولكن مع ذلك ينبغي أن تكون في أيدينا ولا تكون في قلوبنا، إن كثيرًا من الناس ينقل الدنيا من يده إلى قلبه، فإذا فقد شيئًا منها جاءته المصيبة العظمى، وإذا فاته شيء منها حزن عليه مثلما يحزن على فراق الدنيا بكاملها، والواقع أن محل الدنيا هو اليد لا القلب، القلب ينبغي أن يكون عامرًا بذكر الله والتعلق به.

واليد لا حرج أن تتصرف في أمور الدنيا، وأن تمتلئ منها من أوجه الخير، والدنيا مطية الآخرة، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «**إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ**»، ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الدعوات ـ باب دعاء (اللهم اقسم لنا من خشيتك...)، رقم (٣٤٢٤) (٣٥٠٢) والحاكم في المستدرك (٤٨٢/٤) من طرق عن خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ... فذكره.
قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غريب.
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه».

الدُّنْيَا، فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا، وَثَنَّى بِالْأُخْرَى، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ، فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، قُلْنَا: يُوحَى إِلَيْهِ، وَسَكَتَ النَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤوسِهِمْ الطَّيْرَ، ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ الرُّحَضَاءَ، فَقَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا، أَوَخَيْرٌ هُوَ ثَلَاثًا، إِنَّ الْخَيْرَ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِالْخَيْرِ، وَإِنَّهُ كُلَّمَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلاَّ آكِلَةَ الْخَضِرِ كُلَّمَا أَكَلَتْ، حَتَّى إِذَا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ، فَثَلَطَتْ، وَبَالَتْ، ثُمَّ رَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ، لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالْآكِلِ الَّذِي لاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

فهي مطية الآخرة، إذا استغلها الشخص فيما يجيد كانت حجة له، وكفرت سيئاته؛ لأن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وإذا لم يأخذها من حلها، ولم يضعها في محلها، كانت وبالاً عليه، وحجة عليه بين يدي الله، استخلفه الله في شيء من ماله، فلم يتصرف فيه تصرفًا صحيحًا، كذلك لا بد من الاعتدال فيما يتعلق بالإنفاق الشخصي، كثير من الناس يكون غنيًّا فتكون ملابسه وإنفاقه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب فضل النفقة في سبيل الله، رقم (٢٨٤٢)، ومسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا وما يبسط منها، رقم (١٠٥٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه).

على قدر إنفاق الفقراء، أو أدنى من ذلك منزلة، ويظن هذا من التواضع، وهذا مخالف لهذا الهدي، بل قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**»[1]، فهذه نعمة الله قد أرسلها إليك، وهو يحب أن

---

(١) يروى عن عبدالله بن عمرو وأبي هريرة وعمران بن حصين وعن أبي الأحوص عن أبيه:

* أما حديث عبدالله بن عمرو. أخرجه الترمذي في سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: كتاب الأدب، باب ما جاء أن الله (تعالى) يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، رقم (٢٨١٩) والنَّسائي (٧٩/٥) وابن ماجه (٣٦٠٥) وأحمد (٦٦٩٥) والحاكم (٢١/٤) والبيهقي في الشعب (٩٤/١٠) من طريق همام، حدثنا قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: فذكره.

قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

* أما حديث أبي هريرة. أخرجه أحمد (٧٧٥٩) من طريق يَحْيَى بْنُ آدَمَ حَدَّثَنَا شَرِيكٌ عَنِ ابْنِ مَوْهَبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ به.

* وحديث عمران بن الحصين. أخرجه أحمد (١٩٠٨٧) والطبراني في الكبير (٢٠/١٣) والبيهقي (٢٧١/٣) من طريق شُعْبَةُ عَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ فَضَالَةَ رَجُلٌ مِنْ قَيْسٍ حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيُّ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا عِمْرَانُ ابْنُ حُصَيْنٍ وَعَلَيْهِ مِطْرَفٌ مِنْ خَزٍّ لَمْ نَرَهُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ وَلاَ بَعْدَهُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ**...» فذكره.

* حديث أبي الأحوص عن أبيه وهو مالك بن نضلة أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُونٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَكَ مَالٌ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنْ كُلِّ الْمَالِ، قَالَ: «**مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟**»، قَالَ: آتَانِي اللَّهُ مِنَ الْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالاً فَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ نِعْمَتِهِ** =

يرى أثر هذه النعمة عليك، ولذلك يقول أحد الحكماء:

العيد قالوا غدًا ما أنت لابسه
فقلت خلعةَ كاسٍ ثوبه خلعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به
يوم التزاين في الثوب الذي خلعا

ما خلعه الله عليك من الملابس، ولكن ينظر أحرى الملابس تلقاه فيه، ومن هنا فإن الاعتدال في الإنفاق على النفس أيضًا من مظاهر هذا الاعتدال والتوازن، لا ينبغي للإنسان أن يكون مسرفًا في ملابسه، ومأكله، ومشربه، ولا أن يكون كذلك مقصرًا عن القدر الذي أنعم الله به عليه، بل ينفق على قدر حاله، كما قال (تعالى): ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

● ولنا سياحة في عالم الترجمات

فكذلك، لا شك أن الاعتدال والتوازن من مظاهرهما ما يتعلق بالاطلاع على الثقافات المعاصرة، وما يجد في

= **وَكَرَامَتِهِ»**. أخرجه الطبراني في الكبير (١٤/١٨٤) وابن حبان (٥٥٠٧) من طريق عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ... فذكره. قال الهيثمي في المجمع (٥/١٣٣): رواه الطبراني في الصغير ورجاله رجال الصحيح.

حياة الإنسان، مما يفتح الله به من أمور هذه الدنيا، فكثير من الناس يقاطع كل جديد، ويتعصب لكل قديم؛ لأنه يرى هذا القديم مرتبطًا بتاريخه وتراثه، فيجعله دينًا، وكثير من الناس، كذلك، يبحث عن كل جديد، حتى لو كان مخالفًا للشرع، فهو يبحث عن الموضات الجديدة، كائنة ما كانت، وهذا كله اختلال في التوازن، على الإنسان أن ينظر إلى الجديد نظرة تفحص وتمعن، فما كان منه موافقة للصواب من نعمة الله فينبغي أن يستغل في طاعة الله.

تجد كثيرًا من الناس اليوم يسمي هذه الأبواق التي تستعمل في الذكر، ورفع الصوت في العلم، ورفع الصوت بالقرآن، ورفع الصوت بالصلاة، يسميها المنفقات، نعوذ بالله، وكثير من الناس لا يصلي في المساجد التي استعملت فيها مكبرات الصوت، وكثير من الناس يهجر كثيرًا من المساجد، ويدعها وهو يسمع النداء حي على الصلاة حي على الفلاح؛ بسبب هذه الآلة؛ التي هي نعمة من نعم الله، أنعم الله بها علينا، فنحن الآن علم الله ضعفنا وعجزنا، وأننا لا نستطيع إسماع الناس بأصواتنا، فيسر لنا هذه الآلات؛ التي هي مثل هذه الملابس.

فهذه الملابس التي تلبسها لم تكن هي التي لبسها آباؤك وأجدادك، ولم تكن موجودة في عصر الرسول ﷺ، وهذه النظارات التي تستغلها لم تكن موجودة كذلك لدى أسلافك، وهذه السيارات التي تركبها والطائرات لم تكن

موجودة لدى أسلافك، هي نعم من نعم الله، وأولى ما تصرف فيه طاعة الله.

إن رسول الله ﷺ كان إذا خطب على منبره أسمع من بالبلاط، والبلاط خمس مئة متر من المسجد، يسمع صوته من مسافة نصف كيلو إذا خطب؛ وذلك لقوته وإسماعه ﷺ، نحن عاجزون عن هذا، لا يمكن أن نجد اليوم رجلاً يتكلم، فيسمع الناس من مسافة نصف كيلو أبدًا، ولذلك لم يزل الناس يتناقصون، فمالك بن أنس (رحمه الله) كان إذا درس يقف بين يديه رجل، فيقرأ على الناس بأعلى صوته، ثم يقف رجل آخر إلى منتهى صوته، فيقرأ بأعلى صوته ويبلغ، ثم يقف وراءه رجل إلى منتهى صوته فيبلغ؛ لاتساع المجلس، وكثرة الحاضرين، ثم أنعم الله علينا بهذه الآلات، وليس فيها أي منكر شرعي، ولا أية مخالفة شرعية، فلماذا يتخذها الإنسان ذريعة لهجران المسجد، وعدم استغلال نعمة الله (تعالى) عليه؟

إن كثيرًا من الناس ينظر إلى كل جديد بهذه النظرة غير المعتدلة، ويخطئ في تصوره حياله، والواقع أن الاعتدال يقتضي منه أن يعلم أن الجديد والقديم فيهما ما هو صواب، وما هو خطأ، وفيهما ما يمكن أن يستغل في الخير، وفيهما ما يمكن أن يستغل في الشر، فيبحث عما يمكن استغلاله في الخير ويستغله فيه، ويخاف مما يستغل في الشر ويحذره، وهذه هي النظرة المعتدلة.

● انفتاح بلا ذوبان

وكذلك، فإن من أوجه الاعتدال الاعتدال في تأديب الأهل، وتربيتهم، وتربية الأولاد، فالذي يتشدد عليهم، ويأخذهم بالشدة الدائمة، ولا يضع عصاه عن عاتقه، لم يأخذ بالاعتدال والتوازن، والذي يهملهم، ولا يأمرهم، ولا ينهاهم، ولا يعظهم في الله، ولا يذكرهم، لم يأخذ أيضًا بهذه النظرة المعتدلة، لكن على الإنسان أن يكون معتدلاً في تعامله مع أهله، يأخذ بالترغيب في وقته، وبالترهيب في وقته، وبالنصيحة في وقتها، وبالوعظ في وقته، وبالتذكير في وقته، ولا يكون شديدًا شدة تقتضي النفور، ولا يكون متساهلاً تساهلاً يقتضي الفتور، بل يكون متوسطًا بين الأمرين، كما قال الله (تعالى) لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن كثيرًا من الناس يربون أولادهم على هذه الشدة الشديدة، فيتربى الولد مخسوفًا، مكسوف الشخصية، ضعيفًا، يحير جوابًا في أية مسألة، ولا يمكن أن يتحمل أية مسئولية؛ بسبب شدة والده عليه، فيكون مريضًا مرضًا نفسيًّا هو انفصام الشخصية، وكذلك في المقابل نجد آخرين يتساهلون مع أولادهم، فلا يحسنون تربيتهم، ولا يتشددون عليهم في أمر من الأمور، وبذلك تفسد أخلاقهم، ويسوء تعاملهم مع والديهم، ويسوء تعاملهم مع الناس، لا بد أن يكون تعامل

الوالد مع ولده معتدلاً متوازنًا، ليس فيه الشدة المفرطة، ولا الليونة المفرطة.

وكذلك، فإن التعامل مع كل ما يجد في هذه الحياة من النوازل لا بد أن ينظر فيه إلى هذا الاعتدال والتوازن، وألا يكون الإنسان فيه متخذًا موقفًا مسبقًا ينطلق منه، بل لا بد أن يأتي بقلب سليم، وقد مدح الله إبراهيم (عليه السلام)، ووصفه الله بأنه أتى ربه بقلب سليم، فعلى الإنسان أن يأتي بقلب سليم في بداية كل أمر، فيكون باحثًا عن الحق، إذا وجده فهو أحق به، ويتبع الحق، ولا يتعصب للباطل، إن التعصب سببه عدم سلامة القلب، كأن يأتي الإنسان متمسكًا برأي من الآراء، ويريد أن يفرضه ويقويه، حتى لو لم يجد له قوة في الحق بحث له عن دليل من الباطل، وهذا سبب في وضع الحديث، والكذب على رسول الله ﷺ، وسبب للتعصب في دين الله، وهو من أخطر الأخطار على الأمة، كذلك، فإن كثيرًا من الناس في عادات المجتمع يفقد هذا التوازن.

وهذه العادات الموجودة في المجتمعات العربية، بعضها عادات حسنة طيبة، مثل الضيافة، ومثل التكافل الاجتماعي، ومثل الإحسان، والجيران، وغير ذلك من العادات الطيبة المحمودة، وهناك عادات قبيحة ذميمة، مخالفة للشرع، مثل الاختلاط، ومثل الإخلال بالعبادة، ومثل الإخلال بالعقائد، وغير ذلك من الظواهر السيئة، وعادات وسط، ليست مثل

هذا ولا مثل هذا، مثل عادة بعض الملابس، وغيرها من العادات.

هذه العادات لا بد أن ينظر إليها بنظرة توازن، لا تنبذ بكاملها، ولا يأخذ بها بكاملها، بل ينظر الشخص إلى الصواب المتمحض منها، فيأخذ به، والخطأ المتمحض ينبذه، وإذا كان متوسطًا بين الأمرين رجح فيه المصلحة، وهذا التوازن مطلوب في العادات السالفة، وما كان لدى الأجداد كثير من الناس يأخذ بكل ما كان لدى أجداده، ويجعله من تراثه، ولا يمكن أن يتزحزح عنه، وبعضهم ينكر كل ما كان لدى أجداده، ويتخلص من كل ما كان لديهم، وهذا كله مخالف للتوازن والاعتدال؛ الذي يرى بعض المخالفات في هدي آبائه وأجداده، فيجعل ذلك ذريعة لتكفيرهم، أو نبذهم، أو الرد عليهم في كل ما أتوا به، هذا غير معتدل، وغير متوازن.

والذي يرى جانب الصلاح والورع في أجداده وآبائه، ويأخذ هذا الجانب، ويجعله كل حياتهم، فكل ما فعلوه يأخذ به، ولا يتركه، مهما كان، ولا يبحث عن حكمه الشرعي، ولا عن دليله، هذا أيضًا غير متوازن، لا بد أن ينظر بنظرة توازن واعتدال في حياتنا كلها، وقد رأيتم بعض الجوانب التي يمكن أن تلحقوا بها أضعافها، في مختلف حياتكم اليومية، وأنتم تنظرون إلى هذه الآيات وتجعلونها نصب أعينكم، وهذه الأحاديث التي تدلكم على التوازن، في

تعاملكم مع أموركم كلها، ومع شئون حياتكم، وتعلمون أن هذا التوازن قيمة من قيم دينكم؛ الذي جاء به محمد ﷺ، وأن الإفراط والتفريط كليهما مذموم، وأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه، والقسوة في موضعها.

مقومات شخصية المسلم

النـهر nhr-azb

مقومات شخصية المسلم

● أسس تميزنا

فإن كل ملة ونحلة، وكل أيديولوجية، لها قيم وأسس، تبينها وتميزها عمن سواها، وإن هذا الدين الذي هو الدين الحق عند الله (سبحانه وتعالى) له ميزات هي التي تميزه عما سواه، وهي التي يزداد بها منسوب الإيمان في قلوب ذويه، وهي التي يحسن الإنسان بها إيمانه، فيصبح حسن الإسلام من عدمها، ولو كان مؤمنًا بقلبه ولسانه وبعض جوارحه فإن إسلامه غير حسن، وحسن الإسلام هو الذي اشترطه الرسول ﷺ في تكفير الحسنات للسيئات.

وفيما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ: الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا، إِلاَّ أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا**»[1]. وقد بين

(١) أخرجه البخاري معلقًا في صحيحه: كتاب الإيمان، باب حسن إسلام =

النهر nhr-azb

= المرء، رقم (٤١)، عن مَالِكٌ أَخْبَرَنِي زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ: فذكره. ووصله النسائي (٨/١٥٠) والبيهقي في الشعب (١/٣٠) من طريق أحمد بن المعلى بن يزيد قال: حدثنا صفوان بن صالح قال: حدثنا الوليد قال: حدثنا مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا به.

قال البيهقي: قال الإمام أحمد: «أسنده مالك، وأرسله ابن عيينة».

وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/٨٢): هكذا ذكره معلقًا... ورواية شاذة، وقد حفظ مالك الوصل فيه، وهو أتقن لحديث أهل المدينة من غيره، وقد وصله أبو ذر الهروي في روايته للصحيح فقال عقبه: أخبرناه النضروي هو العباس بن الفضل قال حدثنا الحسن بن إدريس قال حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد بن مسلم عن مالك به، وكذا وصله النسائي من رواية الوليد بن مسلم...، وكذا وصله الحسن بن سفيان من طريق عبدالله بن نافع، والبزار من طريق إسحاق الفروي والإسماعيلي من طريق عبدالله بن وهب والبيهقي في الشعب من طريق إسماعيل ابن أبي أويس كلهم عن مالك، وأخرجه الدارقطني من طرق أخرى عن مالك.

«وقد ثبت في جميع الروايات ما سقط من رواية البخاري وهو كتابة الحسنات المتقدمة قبل الإسلام. وقوله «كتب الله» أي أمر أن يكتب، وللدارقطني من طريق زيد بن شعيب عن مالك بلفظ: «يقول الله لملائكته اكتبوا»، فقيل: إن المصنف أسقط ما رواه غيره عمدًا، لأنه مشكل على القواعد».

وقال المازري: الكافر ليس كذلك، فلا يثاب على العمل الصالح الصادر منه في شركه، لأن من شرط المتقرب أن يكون عارفًا لمن يتقرب إليه، والكافر ليس كذلك. وتابعه القاضي عياض على تقرير هذا الإشكال. واستضعف ذلك النووي فقال: «والصواب الذي عليه المحققون، بل نقل بعضهم فيه الإجماع، أن الكافر إذا فعل أفعالاً جميلة كالصدقة وصلة الرحم، ثم أسلم، ثم مات على الإسلام أن ثواب ذلك يكتب له. وأما دعوى أنه مخالف للقواعد، فغير مسلم؛ لأنه قد يعتد ببعض أفعال الكفار في الدنيا ككفارة الظهار، فإنه لا يلزمه إعادتها إذا أسلم وتجزئه».

إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ»[1]. وعلى هذا الأساس، فإن

(١) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب (حديث: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، رقم (٢٣١٧)، (٢٣١٨). والإمام أحمد في مسنده (مسند الحسين بن علي) (١٦٤/٤)، برقم (١٦٤٢)، (١٦٤٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٣٦٧/٣): ما جاء في الرفق: رواه أحمد والطبراني في الثلاثة بالرواية الأولى، ورجال أحمد والكبير ثقات، وابن ماجه (٣٩٦٦) والطبراني في الكبير (١٢٠/١٩) وابن حبان (٢٢٩) والبيهقي في الشعب (٤٨٤/١٠) من طريق الْأَوْزَاعِيِّ عَنْ قُرَّةَ عَن الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): فذكره.
قال الترمذي عقب حديث (٢٣١٧) حديث أبي هريرة (رضي الله عنه): هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ (ﷺ) إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وقال الترمذي عقب حديث علي بن الحسين (رحمهما الله) رقم (٢٣١٨): وَهَكَذَا رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ الزُّهْرِيِّ عَن الزُّهْرِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ عَن النَّبِيِّ (ﷺ) نَحْوَ حَدِيثِ مَالِكٍ مُرْسَلاً، وَهَذَا عِنْدَنَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ لَمْ يُدْرِكْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ.
وقال البيهقي: إسناد الأول أصح. ـ يعني به رواية مالك مرسلاً ـ. وحسن إسناده النووي في الأذكار (٢٨٧/١).
وله شاهد من حديث زيد بن ثابت نحوه. أخرجه الطبراني في الصغير (٢٥/٣): حدثنا محمد بن عبدة المصيصي أبو بكر، حدثنا محمد بن كثير بن مروان الفلسطيني، حدثنا عبدالرحمٰن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه مرفوعًا به. وقال: لم يرو هذه الأحاديث، عن أبي الزناد إلا ابنه تفرد بها محمد بن كثير بن مروان، ولا كتبناها إلا عن محمد بن عبدة، ولا يروى عن زيد بن ثابت إلا بهذا الإسناد، وأبو الزناد ابن آخر يكنى بأبي القاسم، ولم يسم، روى عنه أحمد بن حنبل. وأورده الهيثمي في المجمع وقال (١٨/٨): رواه الطبراني في الصغير وفيه محمد بن كثير بن مروان وهو ضعيف. =

المؤمن مطالب بأن يعرف أسس شخصيته؛ التي يرتضيها له بارئه (سبحانه وتعالى)، فيتخلق بهذه الأسس، ويزيدها في نفسه، وما كان عادمًا له منها تاب واستغفر، وتدارك التفريط فيما مضى، وما كان متصفًا به، بفطرته أو بتربيته، حمد الله عليه، ورسخه، وزاد فيه. إن الأسس التي تميز بناء شخصية المسلم متعددة المشاريع، فأعظمها وأقدمها الأساس العقدي، فعقيدة المؤمن المقتضية الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، تميز تصوره بهذا الكون والحياة، وتميز كذلك تصرفه في حياته هذه.

فإن الذي لا يحدد مبادئه في الإيمان يبقى ضائعًا في هذه الحياة، يتذبذب كحال المنافقين؛ الذين يقولون عندما يسألون في قبورهم: لا ندري، كما في حديث البراء (رضي الله عنه) مرفوعًا قَالَ: «**فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟، فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟، فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلاَمُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟، فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟، فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ**

= وشاهد آخر عن أبي بكر الصديق مرفوعًا نحوه. أخرجه أبو نعيم في المعرفة (٢٣١/١١) من طريق محمد بن سلام الجمحي، ثنا أبو عبيدة معمر بن المثنى، عن مالك بن عطية، عن أبيه، سمعت أبا رفاعة الفهمي، يقول: سمعت أبا بكر الصديق، (رضي الله عنه) يحدث عن رسول الله ﷺ قال: فذكره.

اللَّهِ، فَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي... وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ... قال: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟، فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟، فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟، فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ...» الحديث[1].

فهذا الأساس العقدي يميز شخصية المسلم، ويلزمه بكثير من الأعمال، وكثير من الأخلاق، وكثير من التصرفات، ويرد عنه كذلك ما يقابلها، ومن هنا فهذا الأساس الأول مقتضٍ من الإنسان محبة الله (سبحانه

(١) رواه البخاري مختصرًا في صحيحه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٤). ومسلم في صحيحه مختصرًا: كتاب الجنة ونعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه، وإثبات عذاب القبر، رقم (٢٨٧٠). وأخرجه أبو داود (٤١٢٧). وأحمد في مسنده عن البراء بن عازب (رضي الله عنه) رقم (١٧٨٠٣) وابن أبي شيبة (٣/٢٥٦) والحاكم (١/١١٠) من طريق مسند الْأَعْمَشُ، عَنْ مِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ زَاذَانَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ مرفوعًا به. وقال: صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٤٧١) باب السؤال في القبر، هو في الصحيح وغيره باختصار، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وتعالى)، والتوكل عليه وحده، ورجاءه وخوفه والأدب معه، وكذلك مقتضٍ لمحبة رسول الله ﷺ، وسائر رسل الله، ومحبة رسول الله ﷺ مقتضية تصديقه فيما أخبر، واتباعه وطاعته فيما أمر، وألا يعبد الله إلا بما بلغ عنه، هذه ثلاثة أمور هي مقتضيات شهادة أن محمدًا رسول الله ـ ﷺ ـ.

وكذلك، فإن هذه الأسس العقدية تقتضي من الإنسان الصمود والصبر والثبات وعدم التزحزح؛ فالذي يؤمن بالله وحده، ويعلم أنه لا نافع ولا ضار إلا الله، وأن الله كتب ما هو كائن بقدره النافذ، وأنه رُفِعت الأقلام، وجفَّت الصحف، وأن الأمة كلها لو اجتمعت على أن تنفعه بشيء لم تنفعه إلا بشيء قد كتبه الله له، وأنها لو اجتمعت على أن تضره بشيء لم تضره إلا بشيء قد كتبه الله عليه، لا يمكن أن يخضع ويذل لغير الله، ولا يمكن أن يؤثر رضا المخلوق على رضا الله، ولا يمكن أن يخاف ولا أن يطمع إلا بالله (سبحانه وتعالى)، ذلك لأن إيمانه بالله (سبحانه وتعالى) مقتضٍ معرفته به، معرفته أن الله هو ديان السموات والأرض، الحي القيوم؛ الذي لا تأخذه سِنة ولا نوم، بيده مقاليد كل شيء، هو الملك الحق المبين، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ويعلم أنه (سبحانه وتعالى) هو القادر على كل شيء، لا يعجزه شيء، وأنه هو المدبر للكون كله، وأنه لا يغفل عنه لحظة واحدة.

ومن هنا، فإن قناعته بهذا مقتضية منه تمام التعلق بالله

والاتصال به، والتوكل عليه ورجاءه وخوفه، وعدم رجاء من سواه وعدم خوفه وعدم الاعتماد عليه في أي شيء، لعلمه أن كل من سوى الله لا يملك لنفسه فضلاً عن الغير حياةً، ولا موتًا، ولا نشورًا، ولا نفعًا، ولا ضررًا، ومن هنا لا يحق أن يتوكل عليه، ولا أن يرجو نفعه ولا أن يخاف ضرره؛ لأنه لا يملك لنفسه شيئًا من ذلك، وإيمان الإنسان الراسخ بأن الأنفس كلها بإذن الله، وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمٰن، يقلبها كيف يشاء، مقتضٍ منه كذلك أن لا يثق بما سوى الله؛ لأن الله (سبحانه وتعالى) هو الذي لا يبدو له البداء، فعلمه سابق لكل خلقه، إن الله بكل شيء عليم.

والمخلوق يبدو له البداء في كل لحظة، فيتغير رأيه، ويعدل عن الآراء التي كان يريدها، وأول ما تعرف به ربك ركب العزائم، كذلك فإن عقيدة المسلم هذه تقتضي منه أن يميز بين الخالق والمخلوق تمييزًا كاملاً، فمقتضيات الألوهية لن يعدل بشيء منها إلى المخلوق، يعلم أنها من خصائص الله (سبحانه وتعالى) وحده، ولا يمكن أن يصرف شيئًا منها إلى المخلوق، ولا يمكن أن تصرف عبادة للمخلوق أيًّا كانت، لا في ظاهرها، ولا في باطنها.

فالمؤمن ذو الشخصية الإسلامية القوية لا يصرف شيء من عبادته الباطنية لمخلوق، فلا يرائه ولا يسمع ولا يلتفت بشيء من عباداته لغير الله؛ لعلمه بالمراقبة الحقيقية، كما في

الحديث: «**لاَ يَزَالُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) مُقْبِلاً عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ فِي صَلاَتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا الْتَفَتَ انْصَرَفَ عَنْهُ**»(١).

وكذلك لا يعدل عنه بشيء من عباداته الظاهرة، فلا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب الالتفات في الصلاة، رقم (٩٠٩). والنسائي (٤/٤٣٢) وأحمد من مسند أبي ذر (رضي الله عنه) (٢٠٥٣١) والدارمي (١٤٧٤) والحاكم (٢/٣٨٠) رقم (٨٢٧) وابن خزيمة (٤٦٥) والطحاوي في مشكل الآثار (٣/٤٦٤) والبيهقي (٢/٢٨٢) من طرق عن يُونُسَ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْأَحْوَصِ يُحَدِّثُنَا فِي مَجْلِسِ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ وَابْنُ الْمُسَيَّبِ جَالِسٌ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): فذكره.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو الأحوص هذا مولى بني الليث تابعي من أهل المدينة، وثقه الزهري وروى عنه».
وقال الزيلعي في نصب الراية (٣/١٠٦):
قَالَ الْمُنْذِرِيُّ فِي «حَوَاشِيهِ»: وَأَبُو الْأَحْوَصِ هَذَا، لاَ يُعْرَفُ اسْمُهُ، وَهُوَ مَوْلَى بَنِي لَيْثٍ، وَقِيلَ: مَوْلَى بَنَي غِفَارٍ، لَمْ يَرْوِ عَنْهُ غَيْرُ الزُّهْرِيِّ، قَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَقَالَ الْكَرَابِيسِيُّ: لَيْسَ بِالْمَتِينِ عِنْدَهُمْ، قَالَ النَّوَوِيُّ فِي «الْخُلاَصَةِ»: هُوَ فِيهِ جَهَالَةٌ، لَكِنَّ الْحَدِيثَ لَمْ يُضَعِّفْهُ أَبُو دَاوُد، فَهُوَ حَسَنٌ عِنْدَهُ انْتَهَى.
وللحديث شاهد من حديث الْحَارِثَ الْأَشْعَرِيَّ مرفوعًا في حديث طويل: «**وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلاَةِ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلاَتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ**» أخرجه الترمذي (٢٧٩٠) وأحمد (١٦٥٤٢) وعبدالرزاق (١١/٣٤٠) والحاكم (٤/٦٥) من طريق يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ سَلاَّمٍ أَنَّ أَبَا سَلاَّمٍ حَدَّثَهُ أَنَّ الْحَارِثَ الْأَشْعَرِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: فذكره. قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».

نذر للمخلوق، ولا رجاء لما يأتي من عنده إلا ما كتبه الله، ولا خوف كذلك، لما يأتي منه إلا ما كتبه الله، ومن هنا لن يصرف لمخلوق أي جزء من أجزاء العبادة، بأي وجه من الوجوه؛ لأنها من خصائص الألوهية، حتى لو كان هذا المخلوق أشرف الخلق على الله، وأكرمهم لديه، وأحبهم إلى الناس وأنفعهم لهم، فرسل الله (عليهم السلام) وملائكته المقربون (عليهم السلام)، هم أبلغ عباد الله تحقيقًا لهذه العقيدة.

ولهذا قال الله (تعالى): ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، ويقول في وصف الأنبياء: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ويقول في وصف من ارتضى عملهم، ويدخل فيهم الأنبياء وغيرهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٨]، فهذا الأساس مقتضٍ هذا التميز وعدم الميوعة.

أما من اختل لديه شيء من الأسس العقدية فسيضع كل شيء في غير موضعه، يجعل العبادة في غير موضعها، فلا

يتجه بها اتجاهها الصحيح، ويجعل التوكل في غير موضعه فلا يتجه به الاتجاه الصحيح، ويجعل الخوف والرجاء في غير موضعهما فلا يتجه بهما الاتجاه الصحيح، ومن هنا يصاب بالتذبذب كحال المنافقين؛ الذين قال الله فيهم: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾ [النساء: ١٤٣].

● عابد بطبعه ... عظيم بقلبه

الأساس الثاني بعد الأساس العقدي هو الأساس التعبدي، فمن شخصية المؤمن أنه عابد بطبعه، والإنسان مفطور على العبادة، فإن عرف من يستحق العبادة وعرف الله أفرده بهذه العبادة، وإن لم يعرف إلهه بدأ يلتمس شيئًا يعبده، لا بد أن يعبد شجرًا، أو حجرًا، أو مدرًا أو غير ذلك، لكنه بطبعه مفطور على العبودية، والذي يزعم أنه هو الإله من البشر منتكس الفطرة، مكذب لنفسه؛ ولذلك كان عمل فرعون وغيره من الذين ادعوا الربوبية نشازًا في عالم البشرية، فالبشر لا يمكن أن يصدقوا هذا.

ومن الغريب أن هذه الفطرة، فطرة العبودية؛ التي فطر الله عليها بني آدم أجمعين، في بعض الأحيان إذا لم يهتدِ الإنسان إلى ربه وإلهه يعبد شيئًا في الواقع هو أشرف منه، فقد كان الناس في أيام الجاهلية يعبدون الحجارة التي يصنعونها، ولهذا نبههم إبراهيم خليل الله على أنهم أشرف

من هذه الحجارة، وأعظم منها، وكذلك كانوا يعبدون أتفه الأشياء.

فقد حدث طارق بن شهاب أنهم كانوا إذا وجدوا حجرًا فأعجبهم عبدوه، فإذا وجدوا آخر أحسن منه عدلوا عن الأول، وكسروه، وعبدوا الثاني، فإذا لم يجدوا حجرًا جمعوا ترابًا وحلبوا عليه شاة، فإذا يبس عبدوه من دون الله[1]، هذا من انتكاس الفطرة، لكن عمومًا الموافق للفطرة العبودية، فالإنسان بطبعه عبد، والذين يدَّعون الحرية ويدعون إليها يعلمون أن تلك الحرية مقيدة، وأن لها حدودًا لا بد أن تنتهي إليها، فالإنسان مفطور على العبودية بهذا فإذًا من أسس بناء شخصية المؤمن أن يكون عابدًا لله (سبحانه وتعالى)، وأن يكون مسارعًا في ذلك، وأن يعلم أن قيمته هي هذه العبادة.

فقيمة كل شيء هي ما ينفع فيه، جهاز التسجيل قيمته ما هي؟، قيمته سببها أنه بيع للتسجيل، فما دام يقوم بوظيفته فهو ذو سعر مرتفع، وإذا خرب ولم يؤدِّ هذا الدور هل يبقى له ثمن؟، لا يبقى له ثمن، والإنسان كذلك خلق من أجل العبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]، فإذا فقد الإنسان هذه

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/٢٣٥).

القيمة، ولم يؤدِّ هذه العبادة، أو كان يؤديها بدور ناقص، مثل الجهاز إذا كان يسجل، ولكن يسجل بتشويش وأصوات مزعجة، فأداؤه ناقص، وعلى أساس ذلك تنحطُّ قيمته، ويقل سعره.

وبهذا، فإن الفضل في البشرية إنما يكون بحسب التقوى أو العبادة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذه القيمة لا شك أنها متدرجة متفاوتة، فأعظم العبادات وأجلها ما افترضه الله على عباده، ودونها سياجها المكمل لها من السنن والمندوبات، فالواجبات مثل البيت، والسنن والمندوبات مثل السور المحيط بالبيت، ويعصمه من السراق ومن اللصوص والسيارات والبهائم، والبيت محتاج إلى ذلك السور المحيط به.

وكذلك العبادات تكميلها وتتميمها بهذه السنن والمندوبات، ومن فرط في شيء منها فإن ذلك سيكون على حساب الأصل؛ لأن العبادة كل متكامل، فإذا فرط الإنسان في المندوبات ساقه ذلك إلى السنن، وإذا فرط في السنن ساقه ذلك إلى التفريط في الفرائض؛ التي هي رأس المال، والله (تعالى) بفضله وكرمه أتاح للإنسان الكثير من الفرص في مجال العبادات، ومن أعظم هذه الفرص فرصة النية، فالإنسان وقته محصور، وجهده يسير، لكن ينوي للعمل

الواحد عشرين نية، أو ثلاث عشرة نية أو أكثر، فيكتب له عدد هذه النيات من الأعمال.

ولهذا صح عن رسول الله ﷺ: (أن رجلاً خرج، فرأى كثيبًا أهيل من رمل، فتمنى لو كان له مثله سويقًا، فينفقه في سبيل الله، فلما مات عرض الله عليه صحيفة حسناته، فإذا بها كثيب أهيل من السويق، فقال: يا رب، من أين لي هذا وما أبصرته عيناي قط؟، فقال: إنك مررت بكثيب رمل، فتمنيت لو كان لك مثله سويقًا، فتنفقه في سبيل الله، فقد قبلته منك)[1]، ونية المؤمن أبلغ من عمله؛ ولهذا قال الله (تعالى): ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ١٠٠]، وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[2].

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١) وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في صحيحه: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنية، رقم (١٩٠٧) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه). وأخرجه البخاري (٢٣٤٤ ـ ٤٦٨٢) بألفاظ أخرى منها: (الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ) (الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ).

وهذه النية يمكن أن تُنمّى ويُنمّى بها العمل، ويزداد، فإذا جاء الإنسان وأدرك الناس في أثناء الصلاة، فإنه ينوي أداء هذه الفريضة؛ التي هي ركن من أركان الإسلام، ثم ينوي كذلك الحفاظ عليها حين أمره الله بذلك، وينوي المحافظة على الصلاة الوسطى؛ لأن أرجح شيء فيها أنها صلاة العصر، وينوي كذلك تكثير سواد المسلمين، وينوي أن تكون خطاه إلى المسجد لا يرفع خطوة إلا رُفعت له بها درجة، وحُطت عنه بها سيئة، وكُتبت له بها حسنة، وألا يمر على شيء إلا شهد له، وأن يعتدل في الصف كما تصُف الملائكة عند ربها، وأن يحبس جوارحه عن المعصية ما دام في المسجد، وأن يأتي بعلم يعلمه أو يتعلم، فيكون كالمجاهد في سبيل الله، رجع غانمًا.

وأن يكون كذلك من الذين يتعرفون على الله في الرخاء حتى يعرفهم في الشدة، ومن الذين يتعرفون على ملائكة الله الذين يستغفرون لعباده، وهم على أبواب المساجد، يكتبون الناس الأول فالأول، وأن يكون كذلك من الذين يترهبون بعمارة المساجد ولو لحظة، وأن يلتمس دعاء المسلمين في المساجد، وأن يكون من عمّارها ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨].

وأن يكون كذلك من الذين يلتمسون بركة الذين يعمرون هذه المساجد، من الملائكة، ومن صالح الإنس والجن، فدعواتهم وأخلاقهم ومجالستهم تغفر بها الذنوب، كما في الحديث الصحيح: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟، قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟، قَالَ: فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟، قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟، قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟، قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟، قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟، قَالَ: يَقُولُونَ: مِنْ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟، قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟، قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنْ الْمَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ، لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ:**

هُم الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[1].

كذلك نية تحية المسجد، إذا جاء الإنسان ووجد الإمام في أثناء الصلاة، فهذه الفريضة بإمكانه أن ينوي بها السنة، فينوي بها تحية المسجد، فتحسب له صلاة أخرى، زائدة عن أصل ذلك، كل هذه النيات تكتب أعمالاً مستقلة في ميزان الحسنات؛ الذي يوزن فيه بمقاييس الذر، أصغر شيء ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

كذلك مما ينمي هذه العبادات ويزكيها الإخلاص فيها لله (سبحانه وتعالى)، وموافقتها لما شرع، وهذان الركنان هما ركنا صلاح العمل:

الركن الأول: أن يكون الإنسان مخلصًا في كل حركاته وسكناته وعباداته لله وحده، ديان السموات والأرض، لا يشرك معه غيره في شيء من تصرفاته، فهو الملك الحق المبين؛ الذي يقول فيما روى عنه رسوله ﷺ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، رقم (٦٤٠٨)، ومسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر، رقم (٢٦٨٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه).

تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1] ومن هنا يحاول الإنسان الإخلاص في تصرفاته.

وقد كان كثير من الصالحين إذا بدأ عملاً في العبادة فخرج من أجله، وتذكر أن بعض النيات قد نزت عن ذهنه، أو قصر عنها تفكيره، رجع إلى الوراء، حتى يبتدئ العمل بهذه النيات المخلصة كلها.

الركن الثاني: أن تكون هذه العبادة موافقة لما شرع الله، فكم من أقوام يعبدون ولا يستريحون ولا يفترون، لكن عبادتهم غير موافقة لما شرع الله، فلا يتقبلها الله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٧]، هؤلاء خالفوا، فلم يتقبل الله (تعالى) عبادتهم وردها عليهم.

ولذلك قال بعض العلماء: إن من أكبر المصائب على الإنسان العابد أن يكون أجنى جناياته عبادته التي يريد بها التقرب إلى الله، إذا كانت الصلاة التي هي القربة الأولى لدى الإنسان يتقرب بها إلى الله، كانت هي الجناية الكبرى يوم القيامة فهذا من أعظم المصائب، ومن هنا فعلى الإنسان بما يتعلق بعباداته أن يتعلم ما شرعه الله فيها، وأن يحافظ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزهد والرقائق، باب تحريم الرياء، رقم (٢٩٨٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه).

على ذلك، فهو إقامتها، والمحافظة عليها، ومن أمثلة ذلك ومن نماذجه هذه الصلاة، فإنه لا ينبغي أن يمل الناس من دراسة أحكامها، وسننها، وهيئاتها، وآدابها الكثيرة؛ التي لا نرى تطبيق كثير منها، فكثير من الناس يعلم هيئة الركوع مثلاً، ولكنه لا يعطيه وقتًا، ولا يطمئن فيه.

وكثير يعلم هيئة السجود ولكنه لا يؤديه كما شرع، ولا يطمئن فيه، فنراه منقبضًا، يدخل مرفقيه عند بطنه، ويمس جنبيه بضبعيه، ويخالف الهدي النبوي في هيئة الصلاة كلها، إن دراسة الهدي النبوي في العبادة، مقتضٍ من الإنسان أن يحسن هذه العبادة التي هي قيمته، وهي أساس شخصيته، ومن هنا اعتنى كثير من أهل العلم ببيان الهدي النبوي في مجال العبادات.

ومن هؤلاء شمس الدين ابن القيم رحمه الله[1]؛ الذي

(١) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبدالله، شمس الدين: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق. تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وطيف به على جمل مضروبًا بالعصى.
وأطلق بعد موت ابن تيمية، وكان حسن الخلق محبوبًا عند الناس، أغري بحب الكتب، فجمع منها عددًا عظيمًا، وكتب بخطه الحسن شيئًا كثيرًا. وألف تصانيف كثيرة منها (إعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) و(شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل). و(مفتاح دار السعادة) و(زاد المعاد) و(الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة) وغيرها. الأعلام للزركلي (٥٦/٦).

ألف كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد، فحاول أن يجمع فيه الهدي النبوي الوارد عن النبي ﷺ في هيئات التعبدات، ليكون ذلك معينًا للمسلم على تطبيق ما جاء عن النبي ﷺ، وكذلك من هؤلاء الحافظ البغوي رحمه الله[1]، فقد ألف كتابه مصابيح السنة، ورتبه في كل عبادة، وفي كل باب على فصلين، الفصل (**الأول**): ما جاء في الصحيحين، والفصل (**الثاني**): ما كان في السنن والمسانيد والمعاجم، فسمى الأول الصحاح، والثاني الحسان، وإن كان أهل الحديث قد لاحظوا عليه هذا الاصطلاح؛ لأن أحاديث السنن منها ما هو صحيح، ومنها ما هو ضعيف، فلا توصف كلها بالحسن؛ ولهذا قال العراقي رحمه الله[2] في الألفية:

---

(١) هو الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحيي السنة، البغوي: فقيه، محدث، مفسر. نسبته إلى (بغا) من قرى خراسان، بين هراة ومرو. له (التهذيب) في فقه الشافعية، و(شرح السنة) في الحديث، و(لباب التأويل في معالم التنزيل) في التفسير، و(مصابيح السنة) و(الجمع بين الصحيحين) وغير ذلك. توفي بمرو الروذ. وفيات الأعيان (١/١٤٥).

(٢) هو عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمٰن، أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقي: بحاثة، من كبار حفاظ الحديث.
أصله من الكرد، ومولده في رازنان (من أعمال إربل) تحول صغيرًا مع أبيه إلى مصر، فتعلم ونبغ فيها، وقام برحلة إلى الحجاز والشام وفلسطين، وعاد إلى مصر، فتوفي في القاهرة. من كتبه (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار) في تخريج أحاديث الإحياء، و(نكت منهاج البيضاوي) في الأصول، و(ذيل على الميزان) و(الألفية) في مصطلح =

والبغوي إذ قسم المصابح
إلى الصحاح والحسان جانح
أن الحسان ما رووه في السنن
عيب عليه إذ بها غير الحسن

لكن مع هذا جمع هذا الجمع المفيد الطيب، الذي أفاد الناس في مختلف العصور، وجاء بعده الإمام التبريزي رحمه الله[1]، فاختصر المصابيح، واستخرج منها أهم أحاديث الأبواب في كتابه مشكاة المصابيح، وهذا الكتاب ميسر سهل في متناول الناس، وبالإمكان أن يرجع الإنسان فيه إلى الهدي النبوي في كل تصرفات النبي ﷺ، فيكون ذلك أصلاً في يديه، يرجع إليه في إحسان عباداته لله وحده.

إن هذه القيمة التعبدية هي التي بها النور، والإنسان محتاج إليه، ونور بصيرته وفهمه وأدبه مع الله، إنما يستقى من قيمته التعبدية، فهي أساس عظيم من أسس شخصيته، تستنير بها بصيرته، ويستنير بها وجهه وقلبه، ويصلح للتلقي

= الحديث، وشرحها (فتح المغيث) و(التحرير) في أصول الفقه، و(نظم الدرر السنية) منظومة في السيرة النبوية، و(الألفية) في غريب القرآن، وغيرها. الضوء اللامع (١٧١/٤).

(١) هو محمد بن عبدالله الخطيب العمري، أبو عبدالله، ولي الدين، التبريزي: عالم بالحديث. له (مشكاة المصابيح) أكمل به كتاب مصابيح السنة للبغوي، وفرغ من تأليفه سنة ٧٣٧ و(الإكمال في أسماء الرجال) بهامش المشكاة. الأعلام للزركلي (٢٣٤/٦).

عن الله (سبحانه وتعالى)، والتفهم في كتابه، ومن عدم هذه القيمة حتى لو أفنى عمره في الدراسات، لم ينل وقار العلم، ولا هيبته، ولم يستشعر هذه العظمة والسعادة والراحة القلبية؛ التي عبر عنها أحد علماء هذه البلاد بقوله: إن من أعظم النعم التي تذاق بها حلاوة الإيمان، أن يأتي إلى الإنسان خطاب من ربه أن يفعل كذا فيكون قد علم حكمه، وعرف هيئته الواردة عن النبي ﷺ، فأداه على وجه ما شرع، فيحصل له بهذا سعادة عجيبة.

● الدين المعاملة

الأساس الثالث: من أسس شخصية المسلم أساس المعاملة، وهذا أساس عظيم جدًّا، كذلك فيه الجانب الخلقي؛ الذي قال فيه النبي ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُهُمْ خِيَارُهُمْ لِنِسَائِهِمْ**»[1]، وفيه جانب

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٦٨٢)، والترمذي في سننه: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (١١٦٢). وأحمد (٧٠٩٥) والحاكم (٥/١) من طرق عن مُحَمَّدَ بْنَ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): فذكره.
قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح. ووافقه الذهبي. وأورده الهيثمي في المجمع وقال (٣٠٣/٤): رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقد رواه أبو داود خلا قوله =

النهر nhr-azb

التعاون بين الناس؛ الذي قال الله فيه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢]، وفيه جانب الاكتساب والسعي في الأرض الذي يقول الله فيه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: ١٥]، كل هذه الجوانب داخلة في هذا الأساس، من أسس بناء شخصية المسلم، وهو أساس التعامل، وهذا الأساس يقوم على أن الإنسان مضطر على التعامل مع غيره، وأولى من يتعامل معه ربه (سبحانه وتعالى)، فعليه أن يحسن المعاملة معه.

وأهم ضوابط إحسان المعاملة مع الله الصدق في التوجه إليه، هذا الأساس الأول، إذا علم الله الصدق من عبده في التوجه إليه هداه سبله، وأراه طريق الحق، وأخذ بناصيته إلى ذلك، أما إن رأى منه كذبًا في التوجه إليه، ولم يكن صادقًا في ذلك، فإن الله يغويه ويضله، كما قال (تعالى): ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠ ۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ

= وخيارهم لنسائهم... وفي الباب عَنْ عَائِشَةَ بلفظ: (إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ) أخرجه الترمذي (٢٥٣٧) وأحمد (٢٣٠٧٣) قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ. وعن ابن عمر نحوه. أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٩) وعن أنس نحوه أيضًا. أخرجه أبو يعلى (٤١٣٠).

لِيُؤْمِنُوا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١٠ ـ ١١١].

إن صدق التوجه لله (سبحانه وتعالى) يقتضي من الإنسان أن يتأدب معه، أن يتأدب مع الله بالتلقي والأخذ أولاً، فيعرف نعمة الله، ويعرف من أين أتت، ويقيدها بشكرها، وهذا أساس في التعامل مع النعم، فكثير من الناس لا يعرفون النعمة بوجودها، وإنما يعرفونها بزوالها، إذا فقدوا النعمة تذكروا أنهم كانوا في خير وعافية، وأن ذلك قد فارقهم فأسفوا وندموا، وهذا مخالف لأساس شخصية المسلم؛ لقول الله (تعالى): ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

فعلى هذا، لا بد أن نعرف نعمة الله بوجودها لا بزوالها، ثم بعد ذلك لا بد أن نعرف من أين أتت هذه النعمة، فكثير من الناس تطغيهم نعمة، فينسى من أين أتت، والله (تعالى) يذكر رسوله ﷺ بمصدر نعمته عليه، فيقول: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ١ ـ ٤]، ويقول في السورة التي قبلها ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ

ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ١ ـ ٨]، فيذكره بمصدر النعمة، كثير من الناس يجهل مصدر النعمة بالطغيان، يطغى بالنعمة فينسى مصدرها ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

ولهذا فإن قارون حين أغناه الله نسي مصدر النعمة، فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨]. الأساس الثالث في التعامل مع نعمة الله، هو تقييدها بالشكر، معناه أن كثيرًا من الناس ينكر هذه النعمة بعد معرفته بها، ومعرفته من أين أتت، يعرف النعمة ويعرف مصدرها لكنه ينكرها، كما قال (تعالى): ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: ٨٣].

وأهل الإيمان يعرفون نعمة الله ويقيدونها بالشكر، فإذا شرب الإنسان أو أكل قال: الحمد لله، تذكر هذه النعمة عليه، وإذا استيقظ من نومه، ورد الله إليه روحه، تذكر هذه النعمة، فقال: الحمد لله الذي رد إلي روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره[1]، وإذا منَّ الله عليه بالعبادة حمد الله على ذلك، سمع الله لمن حمده، فيقول ربنا لك

(١) رواه الترمذي في سننه: كتاب الدعوات، باب منه (دعاء: باسمك ربي وضعت جنبي) رقم (٣٤٠١)، وقال الترمذي عنه: حديث حسن.

الحمد، وهكذا فالنعم المتسلسلة يصاحبها ويحاذيها الحمد؛ الذي هو قيدها والشكر الذي هو سبب زيادتها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

● متألِّه أوَّاب

كذلك في التعامل مع الله (سبحانه وتعالى)، من أسس المعاملة أن يتعرف الإنسان عليه في الرخاء كما ذكرنا، وهذا مقتضٍ لأن يكون الإنسان راغبًا إلى الله في كل أحواله، فكثيرٍ من الناس لا يعرفون الدعاء إلا في وقت الشدة، أما في وقت الراحة والسعادة والطمأنينة والغنى والصحة فإنهم يبطرون بتلك النعمة، فلا يذكرون الله، وكثير من الناس بهذا إذا رأى من تسيل دمعته وتفيض عيناه، ويمد يديه إلى بارئ السموات والأرض، يقول: هذا في مشكلة، مصاب بمصيبة؛ لتصور الناس أنه لا يُدعى الله إلا في وقت المشكلات، والواقع خلاف هذا، على الإنسان أن يتعرف إلى الله في الرخاء، وأن يكثر من دعائه، وأن يعلم أن هذا الدعاء هو حقيقة المذلة بين يدي الله، حقيقة التذلل لله إنما تكون بدعائه، والإنسان محتاج إلى هذا في كل أوقاته، وهذا الدعاء هو مخ العبادة، وهو مقتضٍ أن يثني الإنسان على الله بالمحامد والثناء الذي هو أهله ومستحِقه، وهي فرصة عجيبة تتاح للإنسان للثناء على الله.

ومما يؤسف له أن كثيرًا من الناس يهمل هذا الجانب من شخصية المؤمن، فلو عُرِضَت عليه صحيفة كلامه لوجد فيها الكثير من الثناء على المخلوقين، ولما وجد فيها من الثناء على الخالق إلا الشيء اليسير، مع أن الله هو الذي يستحق الثناء، وألسنة الكثير من الناس لا تتعود الثناء على الله، لا تتعود الثناء عليه بصفاته ونعمه وأياديه وآلائه الجسيمة، وهو أهل للثناء، وثبت في صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ**»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ**»[1] يحب الثناء على الله فأدخله ذلك الجنة.

كذلك فإن الدعاء مقتضٍ أن يتذكر الإنسان مذلته وفقره وعجزه، فيتذكر ما يقابل ذلك من صفات الله المخالف للحوادث، يتذكر غنى الله المطلق، يتذكر دوامه وقيوميته؛ التي لا انتهاء لها، ولا انقضاء، يتذكر كرمه وجوده وسخاءه، يتذكر فضله، وأن يديه (سبحانه وتعالى) سحاء لا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم (٧٣٧٥)، ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٨١٣) عَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها).

تغيضان الليل والنهار، ويتذكر حلمه ورأفته ولطفه، فهو الذي يرى الناس على المعصية فيغفر ويستر، ما من أحد منا إلا وهو يتذكر مواقف بينه وبين الله فيخجل منها، ويستحي أن الله يطلع عليه، وهو على المعصية يراه لا يخفى عنه شيء، ولكنه يستره ويسامحه، وهو قادر على أخذه أخذًا وبيلاً، في هذه اللحظة، لكنه ستره، نسأل الله أن يتبع الستر بالمغفرة، وأن يغفر لنا ذنوبنا وخطايانا وإسرافنا في أمرنا.

فإذا تذكر الإنسان ذلك عرف أنه محتاج إلى هذا الدعاء، وأنه أساس من أسس شخصيته التي تميزه، فغير المسلم يدعو غير الله، ويكثر من دعائه، والله (سبحانه وتعالى) يقول في كتابه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤]، وهذا الدعاء لله (سبحانه وتعالى)، هو حقيقة الغنى بالله عما سواه؛ الذي إذا أصابته أية مصيبه، أو احتاج إلى أية حاجة، أو تذكر فقرًا أو تذكر ذنبًا أو تذكر فاقة في أي وجه من الوجوه، بادر إلى باب الدعاء، فسيغلق الله عنه باب الفقر، ويفتح له باب الغنى، فيستغني بالله عما سواه.

والذي إذا تذكر حاجة أو فاقة علقها بالمخلوق، فبدأ

يسأل الناس، كلما سأل فُتِحَت له أبواب أخرى من الفقر، نسأل الله السلامة والعافية، فيجعل الله فقره بين عينيه، ويجعله متعلقًا بالآخرين دائمًا، وهذا الذي كتبه الله على اليهود، فقد كتب الله عليهم الذلة والمسكنة، وضربت عليهم الذلة أينما ثُقفوا، إلا بحبل من الله، وبحبل من الناس، فهم دائمًا يريدون من يحميهم، ويريدون من ينفق عليهم، ويريدون من يبدي لهم جانب الرحمة؛ لأنهم مفطورون على الذلة على المخلوق بخلاف أهل الإيمان، فإن من أساس شخصيتهم أنهم يسألون الله؛ الذي رضي لهم أن يسألوه، فقال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولهذا يعلقون آمالهم ودعاءهم في حوائجهم كلها للذي يقدر على قضائها؛ الذي لو اجتمعت الخلائق كلها في صعيد واحد، فسألوه، فأعطى كل واحد منهم مسألته، ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، الذي لا يعجزه قضاء حوائج عباده، ولا تغيض يداه، بل هما سحاءان الليل والنهار، هذا الذي يستحق أن يُسأل، وأن يدعى، ومن سواه لا يستحق ذلك، بل العباد مفطورون على البخل في الأصل، ولهذا يقول أحد العلماء:

لا تسألن بني آدم حاجة
وسل الذي أبوابه لا تحجب

اللـه يـغـضـب إن تـركـت سـؤالـه
وبـنـي آدم حـيـن يـسـأل يـغـضـب

ويقول المكودي رحمه الله[1]:

إذا عـرضـت لـي فـي زمـاني حـاجـة
وقـد أشـكـلـت فـيـهـا عـلـي الـمـقـاصـد
وقـفـت بـبـاب الله وقـفـة ضـارع
وقـلـت إلـهـي إنـي لـك قـاصـد
ولست تراني واقفًا عند باب من
يـقـول فـتـاه سـيـدي الـيـوم راقـد

ثم إن التعامل مع الله (سبحانه وتعالى) مقتضٍ كذلك، أن يتعرف الإنسان على عجائب خلقه وتدبيره ولطفه، فإن الإنسان إذا لم يدرك هذه الحقائق يبقى جانب عظيم من تعلقه بالله مهملاً مغلقًا، لكن إذا رأى تصرف الله في هذا الكون الذي يخرج فيه النقيض من نقيضه، والضد من ضده، يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، يرى هذه العجائب العجيبة، فإن ذلك مقتضٍ منه زيادة التعلق به،

(١) هو محمد بن محمد بن عبدالله المكودي التازي، أبو عبدالله: متصوف من شيوخ المغرب، من أهل تازة، من تلاميذ الدرقاوي.
له تآليف، منها (الإرشاد والتبيان في رد ما أنكره الرؤساء من أهل تطوان)، سجن المكودي بسببه مع جماعة، و(رسالة في سلوك الطريق) و(شرح منظومة لأبي مدين، أولها: ما لذة العيش). الأعلام للزركلي (٧/٧١).

وزيادة المحبة، وزيادة الرجاء وعدم الانقطاع مطلقًا، من رأى عجائب كون الله (سبحانه وتعالى)، ودقائق ملكوته، لم ينزعج، ولم تسد أمامه الأبواب، ولم يقنط، ولم ييأس ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: ٨٧].

فإذا تعالى الباطل وعلت صيحاته وانتفش وانتفخ، فإن أهل الإيمان يعلمون أن الفرج قريب، وأن النصر مع الصبر، وأن الذي أهلك قوم نوح، فأمر السماء، ففتحت أبوابها بالماء المنهمر، وأمر الأرض فتفجرت عيونًا، حتى التقى الماء على أمر قد قدر، وأهلك عادًا بالريح؛ التي سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، وأهلك ثمود بالصيحة؛ التي لم تبقِ لهم باقية، وثمود فما أبقى، وأهلك قوم نوح بالحاصب؛ الذي قلب مدينتهم، وأهلك أصحاب فرعون وفرعون بارتطام البحر، والتقائه عليهم، غير عاجز عن أن يهلك أعداءه في أي زمان، وأي مكان ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ٤٣ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر: ٤٣ ـ ٤٥].

فمن هنا لا ييأس الإنسان ولا يحزن إذا رأى انتفاش الباطل؛ لعلمه أن له صولة فيضمحل، كذلك فإن من واقع التعامل مع الله (سبحانه وتعالى) الذي ينبغي أن يكون حاضرًا في أذهان المؤمنين، أن المؤمن إذا أصابته أية مصيبة، أو نفذ

فيه أي قدر من أقدار الله (سبحانه وتعالى) تذكر الكلمة البليغة في التعامل مع الله عند المصائب، وهي إنا لله وإنا إليه راجعون ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧]، إنا لله، فنحن مملوكون له (سبحانه وتعالى)، وتصرفه فينا نافذ ماضٍ، لا معقب لحكمه، وإنا إليه راجعون، فنحن جميعًا راجعون إليه، حتى لو تعدتنا المصائب الآن، وتجاوزتنا، فلا بد أن نصل إلى الرجوع إليه؛ لأن مرجع الأمور كلها إليه ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

● محب متبع

ثم في التعامل مع رسول الله ﷺ؛ الذي هو أمنُّ الخلق على الناس، شرط الله محبته في الإيمان، فقال: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١)، وفي البخاري عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَام قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلاَّ مِنْ نَفْسِي،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم (١٥) ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين...، رقم (٤٤) عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه).

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**»[1].

ومحبة رسول الله ﷺ مشروطة في الإيمان، والتعامل معه ﷺ، مقتض التأدب معه تمام الأدب، كما قال (سبحانه وتعالى): ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، ويقول (تعالى): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات: ١ ـ ٥].

فالتعامل مع رسول الله ﷺ على أساس التقدير والتوقير، الذي شرطه الله (سبحانه وتعالى)، وأمر به، من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم (٦٦٣٢) عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ (رضي الله عنه).

مميزات شخصية المسلم في مجال التعامل، أما من لم يأخذ بهذه القيمة ـ من قيم شخصية المسلم ـ فسيكون ما بين مفرط ومفرّط، فالمُفرط سيحل الرسول ﷺ بغير منزلته، ولن يعرفه على حقيقته، بل سيحجب عن صفاته الحقيقية، وعن الأدب معه، بمجرد خرافات وأقوال اختلقها أقوام، ليس لها أساس، والنبي ﷺ في غنى عنها، قد شرفه الله وكرمه بالتشريف الكافي، ولا يحتاج إلى الإطراء بالباطل، ولا يحتاج إلى الخرافات، بل آتاه الله المعجزات الحقيقية؛ التي هي مقنعة لكل من سمع وبلغ.

النوع الثاني: المفرِّطون؛ الذين يسيئون الأدب مع رسول الله ﷺ، فلا يوقرونه، ولا يقدرونه، خلافًا لما أمر الله به، ويعتدون على جانب النبوة، فينسبون إليه بآثامهم الزالقة خلاف الواقع، ويظنونه كرجالاتهم، وليس كذلك، بل هو المعصوم الذي شرفه الله على الناس وكرمه، والمؤمن بين هاتين الرذيلتين بين الإفراط والتفريط.

• سمو الأخلاق وسعتها

كذلك فإن الإنسان المؤمن من قيم ومقومات شخصيته في مجال التعامل تعامله مع إخوانه المؤمنين؛ الذين وصف الله تعاملهم فيما بينهم بالرحمة والشفقة، فقال (سبحانه وتعالى): ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾

[الفتح: ٢٩]، ويقول (تعالى): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن هنا، فالصفة العظيمة التي كتبها الله على نفسه، وأمر بها عباده، هي صفة الرحمة، فيتصف بها المؤمنون فيما بينهم، فهم الرحماء الذين يرحمهم الله، ولهذا صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»(١) وصح عنه ﷺ أنه قال: «**مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ**»(٢) وصح

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، رقم (٧٣٧٧) ومسلم في صحيحه: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣) عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:
كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ (ﷺ) فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَدْعُوهُ وَتُخْبِرُهُ أَنَّ صَبِيًّا لَهَا أَوْ ابْنًا لَهَا فِي الْمَوْتِ فَقَالَ لِلرَّسُولِ: «**ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**» فَعَادَ الرَّسُولُ فَقَالَ إِنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا، قَالَ: فَقَامَ النَّبِيُّ (ﷺ) وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمْ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ، كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ، جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا...**» فذكره.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٩٩٧) ومسلم في صحيحه: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال...، رقم (٢٣١٨) عن أبي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: =

عنه ﷺ أنه قال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحْمٰنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»[1].

وهذه الرحمة يحتاج الناس إليها في تعاملهم فيما بينهم، وإذا نُزِعَت الرحمة بين الناس زالت الخيرية منهم، وعدموا هذا الخير الذي اختارهم الله له: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، كذلك في التعامل مع الناس لا بد أن يتذكر الإنسان أنه مخلوق مثلهم، وأنه ليس محصيًا لذنوبهم، ولا مكلفًا بذلك، وأن عليهم ملائكة يحصون أعمالهم، لا يفوتهم شيء منها، وأنه هو لا يكلف إلا نفسه،

= قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) ثُمَّ قَالَ: فذكره.

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١) والترمذي في سننه: كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم (١٩٢٤). وأحمد (٦٢٦٠) وابن أبي شيبة (٩٣/٦) والطبراني في الكبير (١٠٨/٢٠) والحاكم (١٢٢/٤) من طرق عن سُفْيَانُ عَنْ عَمْرٍو عَنْ أَبِي قَابُوسَ مَوْلَى لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ (ﷺ): فذكره.
قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وله شاهد عن جرير مرفوعًا بلفظ: «**من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه من في السماء**» أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/٣) قال المنذري في «الترغيب» (١٥٥/٣): «وإسناده جيد قوي».

ويؤمر بتحريض الآخرين فقط، يأمر وينهى، لكن ليس حسيبًا، ولا مسيطرًا، ولا مهيمنًا، إنما هو شاهد فقط.

ولهذا أخرج مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن عيسى ابن مريم كان يقول: (لاَ تُكْثِرُوا الْكَلاَمَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ، فَإِنَّ الْقَلْبَ الْقَاسِيَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ، وَلاَ تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ، وَانْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَأَنَّكُمْ عَبِيدٌ، فَإِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلًى وَمُعَافًى، فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلاَءِ، وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى الْعَافِيَةِ)[1].

---

(١) أورده الإمام مالك في «الموطأ» كتاب الجامع، باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله (١١٩/٦) بلاغًا بدون إسناد أنه بلغه أن عيسى ابن مريم كان يقوله. وأخرجه البيهقي في الشعب (١٩/١١) من طريقه فقال: أخبرنا أبو زكريا بن أبي إسحاق، أنا أبو الحسن الطرائفي، نا عثمان بن سعيد، قال: نا القعنبي، فيما قرأ على مالك، وأنه بلغه «أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يقول: فذكره».
وروي مرفوعًا عن ابن عمر بلفظ: «**لاَ تُكْثِرُوا الْكَلاَمَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلاَمِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي**» أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب منه النهي عن كثرة الكلام إلا بذكر الله، رقم (٢٤١١). والبيهقي في الشعب (٤٥١/١٠) من طريق إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَاطِبٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): فذكره.
قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَاطِبٍ. وترجم له الذهبي في الميزان وساق له هذا الحديث من غرائبه، وقال: «ما علمت فيه جرحًا».

وهذا الأساس من أسس بناء شخصية المسلم في التعامل مع الناس، مقتضٍ كذلك تفاوتَ درجات الناس باعتبار الحقوق الشرعية، فأحق الناس بحسن صحابة الإنسان أمه، ثم بعدها أبوه، ثم أدناه فأدناه، وكذلك حقوق الجار؛ الذي حض النبي ﷺ على آداء حقوقه، وحقوق الضيف، وحقوق ذو الشيبة في الإسلام، وحقوق أهل العلم والدين، فهذه الحقوق أعلى مما سواها، من حقوق عوام المسلمين.

ثم بعد ذلك حقوق الداعين إلى الله، والساعين في طريق الحق، وأدنى من ذلك حقوق عوام المسلمين؛ الذين لا يلتزمون بجزئيات الإسلام، ولا يتبعون سنن رسول الله ﷺ في تفصيلاته، لكن مع ذلك فإن حق الأخوة لا ينصرم ولا ينقطع إلا بالكفر بالله، ولهذا فقد أثبت الله الأخوة بين المؤمنين مع وجود الظلم والبغي، في قوله (تعالى): ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۚ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠]، من هما الأخوان هنا؟، الباغي والمبغي عليه كلاهما أخوان لنا.

فالأخوة الإيمانية لا ينقضها البغي والظلم، بل هي موجودة على ذلك، لكن حقوق أهلها متفاوتة على ترتيب الحقوق الشرعية، كذلك فالجانب الآخر من جوانب التعامل

هو جانب الاكتساب، فالله (سبحانه وتعالى) قسم الأرزاق بين الناس، ومن حكمته فيما يقتضي حصول الترابط بينهم أن يعطي هذا ما هو في غنى عنه، ويحتاج إليه غيره، ويعطي الآخر ما هو في غنى عنه ويحتاج إليه غيره، حتى يقع التكامل بينهم، وحتى يحتاج بعضهم إلى ما في يد بعض، فيقع التبادل بينهم، ولهذا شرع لهم البيع، وحرم عليهم الربا ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ليقع التكامل فيما بينهم.

وهذا التكامل لا بد أن يكون وفق الشرع، فميزة المسلم المؤمن المحق فيه أنه يميز بين دائرتين متباينتين، هما دائرة الحلال، ودائرة الحرام، ففي طلب الرزق والاكتساب يعلم أن الله (سبحانه وتعالى) جعل له دائرة هي دائرة الحلال، وأجاز له التصرف فيها، والسعي الموافق للشرع، بما ليس فيه مذلة ولا إساءة في الطلب، بل عليه أن يجمل في الطلب، ويعلم أن رزقه مضمون، وأنه لا ينال بالحيلة، كم رأينا من الناس من يبذل جهده ووقته طيلة عمره، في محاولة جمع المال، ويموت فقيرًا، لا يملك شيئًا.

وكم رأينا من الناس من لم يتعب في هذه الدنيا ولم يبذل فيها جهدًا يُذكر، ومع ذلك مات غنيًا، وعاش غنيًّا غير محتاج إلى الناس، فالفضل هنا ليس باتباع الحيل، بل يقول أحد الحكماء:

مـثـل الـرزق الـذي تـطـلـبـه
مثل الظل الذي يمشي معك
أنـت لا تـدركـه مـتـبـعًـا
فـإذا ولـيـت عـنـه تـبـعـك

ويقول الآخر:

باتت تعيّرني الإقتار والعُدُما
لمّا رأت لأخيها المال والنِّعما
تبًّا لرأيك ما الأرزاق عن جلدٍ
ولا من الكسب بل مقسومة قِسما

كل وفق قسمة الله (سبحانه وتعالى)، ومن هنا فعلى الإنسان أن يجمل في الطلب، وألا يذل نفسه، وألا يجعل نفسه خادمًا للدنيا، بل المطلوب أن تكون الدنيا خادمة له هو.

كذلك في هذا المجال عليه أن يعلم الدائرة الأخرى، وهي دائرة الحرام، دائرة مسدودة، حرمها الله عليه، ولا خير له فيها، وإذا زين له الشيطان، أو النفس الأمارة بالسوء، أو إخوان السوء، أن يتزود من هذه الدائرة التي حرم الله فليتذكر قصة إبليس مع آدم وحواء، حين أخرجهما من الجنة، ليتذكر أن على حافتي الطريق أبوابًا مفتحة، وعليها ستور، ووراء كل باب داعٍ يدعو للولوج، وفوقه داعي الله، ينادي، يقول: يا عبد الله لا تلج الباب؛ فإنك إن تلجه لن تخرج منه،

ليتذكر الإنسان إذا عرضت عليه أية صفقة أو أي مكسب، وهو مما حرم الله عليه، أنه يمكن أن يُستدرج بهذا حتى يهوي في النار، فيحاول الابتعاد عن دائرة الحرام ما تيسر له ذلك، وليعلم أن كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به.

وأن ضعاف الإيمان هم الذين يخشون الدوائر، ويريدون أن يسدوا هذه الدوائر، ويتزودوا من هذا الحرام، ولهذا فولاؤهم المبني على أساس العقيدة غير صحيح، ولاؤهم للكفار لا رغبة في دينهم ولا في قيمهم، ولكن لأنهم يخشون الدوائر، فيريدون أن يغنيهم الكفار مما تحت أيديهم؛ ولهذا قال الله (سبحانه وتعالى): ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢].

وكذلك في هذا المجال على الإنسان أن يتعلم حدود الحلال والحرام؛ ولهذا صح عن عمر (رضي الله عنه): (أنه مر بحاطب بسوق المصلى وبين يديه غرارتان فيهما زبيب، فسأله عن سعرهما، فسعر له مدين لكل درهم، فقال له عمر (رضي الله عنه): قد حُدِّثْتُ بعير مُقبلة من الطائف تحمل زبيبًا، وهم يعتبرون بسعرك، فإما أن ترفع في السعر وإما أن تدخل زبيبك البيت، فتبيعه كيف شئت، فلما رجع عمر

حاسب نفسه، ثم أتى حاطبًا في داره، فقال له: إن الذي قلت ليس بعزمة مني ولا قضاء، إنما هو شيء أردت به الخير لأهل البلد، فحيث شئت فبع، وكيف شئت فبع[1]؛ لأنه يخاف على الأسواق فيتعاملون بمعاملات محرمة، فتنتشر تلك المعاملات، وهي الغبار الذي ينال الناس من الربا، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إِلاَّ أَكَلَ الرِّبَا، فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ بُخَارِهِ**»[2].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ: كتاب البيوع، باب الحكرة والتربص (٣٦٦/٤) ومن طريقه البيهقي في السنن (٢٩/٦) عن يونس بن يوسف عن سعيد بن المسيب قال: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حاطب... فذكره ورواه البيهقي في معرفة السنن والآثار (التسعير): (٤٧٥/٩ ـ ٤٧٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب البيوع، باب في اجتناب الشبهات، رقم (٣٣٣١). والنسائي (٢٤٣/٧) وابن ماجه في سننه: كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، رقم (٢٢٧٨). وأحمد برقم (١٠٠٠٧) (١٠٤١٥). و«أبو يَعْلَى» في مسنده (٦٢٣٣) من طرق عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي خَيْرَةَ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: فذكره. وروي بلفظ: (من غباره) وهي رواية ابن ماجه.
قال الزيلعي في نصب الراية (٤٩٠/٤): اخْتَلَفَ أَئِمَّتُنَا فِي سَمَاعِ الْحَسَنِ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَإِنْ صَحَّ سَمَاعُهُ، فَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ، انْتَهَى. وَقَالَ عَبْدُ الْحَقِّ فِي أَحْكَامِهِ: لَمْ يَصِحَّ سَمَاعُ الْحَسَنِ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَوَافَقَهُ ابْنُ الْقَطَّانِ عَلَى ذَلِكَ، وقال الترمذي...: الحسن لم يسمع من أبي هريرة...اهـ. مَعَ أَنِّي وَجَدْت هَذَا الْحَدِيثَ فِي مُسْنَدِ أَبِي يَعْلَى الْمَوْصِلِيِّ عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَةَ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. =

وهذا واقعنا اليوم فالاقتصاد العالمي كله يقوم على الربا، المؤدي إلى حرب الله ورسوله، ومن لم ينل منه ناله من غباره، وعلى المؤمن ـ وهو يسعى لبناء شخصيته ـ أن يعلم أن من مقومات شخصيته الابتعاد عن الحرام.

● ويرجو ما عند الله

كذلك المقوم الثالث من مقومات شخصية المسلم ـ بعد المقوم العقدي الرابع ـ أقصد بعد المقوّم العقدي، والمقوم التعبدي، ومقوم المعاملات، المقوم الآخر: هو مقوم الرغبة فيما عند الله والرغبة في الآخرة، فالمؤمن يعلم أن هذه الدنيا ليست دار بقاء، وأن ما فيها كله فان منتقل، وبالتالي لا تكون أكبر همه، ولا مبلغ علمه، يعلم أن زخارفها لم يمضِ عليها زمن يسير حتى تكون أقذر ما فيها، إذا رأيت شيئًا يعجبك من الدنيا فتتذكر حاله بعد عشرين سنة أو خمسين سنة أو مئة سنة، إذا كان مبنى جميلاً تذكر حاله بعد مئة سنة، لن يستطيع أحد السكنى فيه، سيبقى للحمام

= قَالَ النَّسَائِيُّ: وَقَدْ رَوَاهُ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَبُو حُرَّةَ، وَيُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ، وَاخْتُلِفَ عَلَيْهِمَا فِيهِ، فَرَوَاهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ عَنْهُ بِهِ مَرْفُوعًا، وَخَالَفَهُ بِشْرُ بْنُ السَّرِيِّ، وَأَبُو قَطَنٍ، فَرَوَيَاهُ عَنْهُ بِهِ مَوْقُوفًا، ثُمَّ أَخْرَجَ أَحَادِيثَهُمْ وَرَوَاهُ عَبْدُ الْوَهَّابِ عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنِ الْحَسَنِ بِهِ مَرْفُوعًا، وَخَالَفَهُ بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ، فَرَوَاهُ عَنْ يُونُسَ مِنْ قَوْلِ الْحَسَنِ، ثُمَّ أَخْرَجَ حَدِيثَهُمَا كَذَلِكَ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

ولغيره، إذا رأيت أي شيء يعجبك من أمور هذه الدنيا فاعلم أنه إلى زوال:

إذا أعجبتك الدهر حال من امرئ

فدعه وواكل أمره والليالي

فلهذا قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣١ ـ ١٣٢]، وهذا المقوم مقتضٍ الرغبة فيما عند الله، والزهادة في هذه الدنيا، فالمؤمن يعلم أنها فتنة، فالأموال والأولاد كثيرًا ما تشغل الناس عن طاعة الله وعبادته، ولهذا فهي عذر الأعراب حين أمرهم الله بالجهاد مع رسول الله ﷺ، فقالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١]، وهي الفتنة التي قال الله فيها ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا، فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا، وَثَنَّى بِالْأُخْرَى**»، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟، فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، قُلْنَا: يُوحَى إِلَيْهِ، وَسَكَتَ النَّاسُ، كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ الطَّيْرَ، ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ الرُّحَضَاءَ،

فَقَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا أَوَخَيْرٌ هُوَ ثَلاَثًا؟ إِنَّ الْخَيْرَ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِالْخَيْرِ، وَإِنَّهُ كُلَّمَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلاَّ آكِلَةَ الْخَضِرِ، كُلَّمَا أَكَلَتْ، حَتَّى إِذَا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ، فَثَلَطَتْ، وَبَالَتْ، ثُمَّ رَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالآكِلِ الَّذِي لاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

قيمة المؤمن الخلقية في مجال الدنيا هي أن يتذكر قول الله (تعالى): ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، وكقوله (تعالى): ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]، إذا أعجب إنسان بأي شيء مما في هذه الدنيا، مما يتنافس الناس عليه، من الأموال والأولاد والملك وغير ذلك، تذكر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب فضل النفقة في سبيل الله، رقم (٢٨٤٢) ومسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا وما يبسط منها، رقم (١٠٥٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه).

أن كل هذا إلى زوال، فالذين ينعمون بهذه الدنيا، ويسعدون بما فيها من زخارفها، عما قليل سينقلون عنها ويخرجون، وهذا ما نشاهده يوميًّا.

فكم رأينا ممن كان يخدمه الناس وقد أصبح في حفرة، لا ندري، أصبح في مكان لا ندري أهو روضة من رياض الجنة أم حفرة من حفر النار؟، قد انتقل من هذه الدنيا، وخلّفها وراء ظهره، كما قال (تعالى): ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، انتقلوا من هذه الدنيا وخرجوا منها لم يصحبهم منها إلا أكفانهم وأعمالهم، وسكنوا بعد القصور القبور، وانقطعوا عن أخبار العالم، بعد أن كان كل واحد منهم لا يستطيع الصبر عن وسائل الإعلام، يتابع القنوات الفضائية، يسهر عليها ليله كله، واليوم قد انقطعت عنهم الأخبار، فلا يصل إليهم أي خبر، انقطعت الصلة بهم بالكلية، فلهذا لا يغتر المؤمن بهذه الدنيا، ويعلم أن كل ما فيها مما يتنافس الناس فيه مصيره للزوال:

كل شيء مصيره للزوال
غير ربي وصالح الأعمال

يعلم المؤمن بهذا أن تنافس الناس في هذه الدنيا، وفي زارتها وملكها قد سبق هذا الزمان، وأنها لو كانت تدوم لأحد لما وصلت إلينا اليوم؛ ولذلك قال أحد

الوعاظ لأحد الملوك حين جلس في ملكه، واستعرض جيشه وإمكانياته المختلفة، قال له: لو دامت لغيرك ما وصلت إليك، فتذكر مفارقة السابقين لها، والحال الذي كانوا فيه، وهذا ما أرشدنا الله إليه، في بيان أن هؤلاء قد عمروها أكثر مما عمروها، فأولئك قد مكن لهم في الأرض ما لم يمكّن لنا، ومع ذلك خرجوا منها، وتركوها وراء ظهورهم.

لذلك قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، حين خرج من مكة في حجته، وقف على ضجنان، وهو جبل في شمال مكة، فقال: «كنت أرعى إبلاً للخطاب على ضجنان، فكنت إذا أبطأت ضربني، وقال: ضيعتَ، وإذا عجلت ضربني، ولقد أصبحت وأمسيت وليس بيني وبين الله أحد أخشاه» ثم أنشأ يقول[1]:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الإله ويفنى المال والولد
لم تغنِ عن قيصر يومًا خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له
والجن والإنس فيما بينها تفد

(١) الكامل في التاريخ (٤٧٤/١) والبداية والنهاية (٣٦٤/٢).

النهر nhr-azb

أين الملوك التي كانت لعزتها
من كل صوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب
لا بد من ورده يومًا كما وردوا

وكما قال الآخر:

ذهب الزمان فلا زمان جمانا
وكأنما قد كان لم يكُ كانا
يا من لشيخ قد تطاول عهده
أفنى ثلاث عمائم ألوانا
سوداء حالكة وسحق مفوّفًا
وأجد ثوبًا بعد ذاك هجانا
والموت يأتي بعد ذلك كله
وكأنما يُعنَى بذاك سوانا

فبينما الإنسان مشتغل بهذه الدنيا، يهذبها، ويطول أمله فيها، وكلما فتح منها باب تمنى أن يكون وراءه أبواب، يهجم عليه الموت في هذا الوقت فلا يرده حراس، ولا أعوان، ولا يجد مدافعًا عن الباب، كما قال ابن مناذر[1]:

(١) هو محمد بن مناذر اليربوعي بالولاء، أبو جعفر: شاعر كثير الأخبار والنوادر، كان من العلماء بالأدب واللغة، تفقه وروى الحديث.
وتزندق، فغلب عليه اللهو والمجون. أصله من (عدن) أو من (البصرة) =

النهر nhr-azb

كل حي لاقي الحمام فمودي

مال لحي مؤمر بالخلود

لا تهاب المنون شيئًا ولا ترعى

عـلـى والـد ولا مـولـود

يرضخ الدهر في شماريخ رضوى

ويحط الصخور من هبودِ

ولقد تترك الحوادث والأيام وهيًا

في الصخرة الجلمود

يفعل الله ما يشاء فيمضي

ما لفعل الإله من مردود

فكأن للموت ركبًا محثين

سراعًا للمنهل المورود

إذا تذكر الإنسان سرعة زوال هذه الدنيا وتقلباتها، علم أنها ليست دار بقاء ولا خلود، وأن الذي يرجو فيها البقاء ويريد أن لا يناله فيها كدر، هو كمتطلب في الماء جذوة نار، هي كما قال الشاعر:

= ومنشؤه وشهرته في الثانية. اتصل بالبرامكة ومدحهم، ورآه الرشيد بعد نكبتهم، فأمر به أن يلطم ويسحب. وأخرج من البصرة لهجائه أهلها. وذهب إلى مكة، فتنسك، ثم تهتك. مات فيها. بغية الوعاة (١٠٧) ولسان الميزان (٥/٣٩٠).

بُنِيَت على كدر وأنت تريدها
خلوًا من الأقذار والأكدار

وهذا ما لا يمكن أن يتم أبدًا، ومكلف الأيام غير طباعها متطلب في الماء جذوة نار، فمن أساس ومقومات شخصية المسلم أن يعرف قيمة هذه الدنيا، ولا يزيدها عن حجمها، ومع هذا فما ذكرناه لا يقتضي منه إهمال العمل فيها، فهي دار العمل، وهو مسؤول عن عمارتها، مستخلَف فيها، وقد استعمرنا الله (سبحانه وتعالى) في هذه الأرض وجعلنا خلفاء فيها، ومن هنا أوجب علينا الأسباب لكنه بين لنا أن هذه الأسباب لا تقدم ولا تؤخر، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩].

فنحن مطالبون بأن نعمل، وأن نعمر هذه الدنيا ما استطعنا بخير، لكن مطالبون كذلك بأن لا نغتر بها، وأن نعلم أنها ليست دار بقاء، ومن هنا فالتعامل الصحيح مع هذه الدنيا أن يجعلها الإنسان في يده، وأن لا يجعلها في قلبه، فإنه إن جعلها في يده كان بالإمكان أن يستفيد منها، وأن يتصرف بها، وأن يبعد قذرها عن نفسه، وإن جعلها في قلبه ملكته، وكان وعاءً لها، وخادمًا لها، ولم يفته شيء من أقذارها وأكدارها، وأيضًا فإن الذي حمل الناس على الإيغال والمبالغة في جمع هذه الدنيا هو أنهم يطلبون السعادة بها، والواقع أنها لا تدوم على حال، وأنها عرض فانٍ، ومن هنا

فما يطرأ فيها من التغيرات سيصيبهم من الغموم، والهموم ستزيل السعادة لديهم.

وأنا أعرف أحد التجار الكبار أغمي عليه ذات يوم، فنقل من مكتبه إلى المستشفى، فلما حضر الأطباء أجروا له كل التحليلات اللازمة، فلم يجدوا فيه أي مرض، فاكتشف أحد الأطباء أن الذي أصابه هو الجوع، قال: صاحبنا قتله الجوع والعطش، فبحثوا عن ذلك، فإذا هو منذ أيام وهو يراقب مؤشر أسعار العملات، فلم يجد وقتًا لشرب ولا لأكل، يأتيه الخادم بكأس الشاي أو الشرب فيضعه بين يديه، وهو مشغول، لا يتناوله، والهواتف على أذنيه، ومتابعة مؤشر العملات بين يديه، فيأتي العامل ويأخذ الكأس ويضع جديدًا مكانه، ثم يأخذ الكأس ويضع جديدًا مكانه، وهكذا حتى يذهب الوقت دون أن يتناول أكلاً ولا شربًا، فهذه الدنيا أصبح هو خادمًا لها وباذلاً في سبيلها، بذل نفسه ووقته لخدمة الدنيا، بدل أن كانت تخدمه، فلم يستفد منها شربة ماء حتى أهلكه الجوع والعطش. وأعرف آخر من التجار يحدثني عن نفسه، فيقول: أنا وفلان من أغنى الناس في هذا المكان، ومع ذلك حرم علينا كل ما في هذه الدنيا من الشهوات، فحرم علينا كل ما فيه حلاوة، وكل ما فيه دسم، وكل ما فيه ملح، فلا نتغذى إلا بالعيش والحليب الذي ليس فيه دسم، فكثير من الناس لا يميزون بين جعل الدنيا بين أيديهم وتسخيرها لهم، كثير من الناس يتمنى أن يجعل تحت

يديه الملايين أو المليارات، لكن لا يعلم أن جعلها تحت يديه لا يقتضي انتفاعه منها، فكم من إنسان جعلت تحت يديه فلم ينتفع منها أصلاً، ولم تسد له أية حاجة، فهذه هي قيمة الدنيا الحقيقية.

● إنما السيادة بالعلم

كذلك، فإن من أسس بناء شخصية المسلم أساس العلم، وهو أساس مهم مما يميز المسلمين، فالمسلم دائمًا يسعى لزيادة العلم، وهو يتذكر أن الله (سبحانه وتعالى) يخاطب رسوله ﷺ فيقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]، ويتذكر أن هذا العلم ميز الله (سبحانه وتعالى) به شهداءه على الناس، وائتمنهم عليه، وبقدر علم الإنسان تتحقق خشيته لله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، ويتحقق تلقيه عن الله ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وترتفع منزلته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ومن هنا فالمؤمن حريص على ضالته التي يبتغيها في أي مكان، وهي الحكمة، أنى وجدها فهو أحق بها، يسعى للازدياد من الكتاب، ومن السنة، ومن الأحكام الشرعية،

ومن كل علم يقربه من الله (سبحانه وتعالى)، ولا يستنكف ولا يستكبر عن الازدياد من العلم؛ ولهذا قال الله (تعالى): ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨]، والمسلم الذي يفرط في الازدياد من العلم شخصيته ناقصة، وهو مهزوز، لا يستطيع الاستقرار ولا الصمود؛ لأنه لم يتخذ من وسائل التحصين ما يكفيه سلاحًا ضد كيد أعدائه، وضد شبهات الشيطان التي يلقيها، فهذه لا تُزَال إلا بالازدياد من العلم.

ومن التشريف للمؤمن أن يثبت إيمانه بما يتعلم من القرآن والسنة، كما في حديث حذيفة في الصحيحين:

«أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِن الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِن السُّنَّةِ، وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ، فَنَفِطَ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ،

فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا»[1].

إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال فتعلموا الكتاب والسنة، فكان هذا سياجًا للأمانة، وتثبيتًا لها في القلوب، والذي يحاول أن يزداد كل يوم علمًا أيًّا كان سيكون سائرًا في طريق الجنة، كما في الحديث: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[2].

والذي يعرض عن ذلك مصيره أن يحشر يوم القيامة أعمى، ويضمن الله له معيشة ضنكًا، وكدًا في العيش في هذه الدنيا، كما قال (تعالى): ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم (٦٤٩٧) ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، وعرض الفتن على القلوب، رقم (١٤٣) عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ (رضي الله عنه).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه).

وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٧].

كذلك فإن حفاظ المسلم على الازدياد من العلم يقتضي منه حرصًا عليه بأن يكون أحد ثلاثة: إما أن يكون عالمًا، وإما أن يكون متعلمًا، وإما أن يكون معينًا، ولا يمكن أن يكون الرابع؛ الذي لا له ولا عليه؛ لأن الرابع هو الذي ضرب له النبي ﷺ مثلا بالقيعان؛ التي لا تمسك ماءً، ولا تنبت عشبًا، فقال: «**وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لاَ تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ، وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»[1].

فلهذا من بناء شخصية المسلم أن يكون متعلمًا، فهو حريص على الازدياد من العلم، بالفكر والمطالعة والسماع والاستفتاء والسؤال ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]، ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣]، ولهذا قال النبي ﷺ في حديث عثمان بن عفان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلّم، رقم (٧٩) ومسلم في صحيحه: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم، رقم (٢٢٨٢) عَنْ أَبِي مُوسَى (رضي الله عنه).

(رضي الله عنه) في صحيح البخاري: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[1]، خير المسلمين من تعلم القرآن وعلمه.

● بالقرآن نحيا

فلهذا، فإن من أسس بناء شخصية المسلم التعلق بهذا القرآن وقراءته وتدبره، والذي لا يجد ذلك، ولا يأنس بكتاب الله، ولا تتعود أصابعه على فتح المصحف، ولا يتعود يوميًّا على قراءة آيات من كتاب الله، ينور بها بصيرته وبصره، جوفُه خالٍ، وهو بمثابة البيت الخواء المهجور؛ الذي ليس فيه خير، أما المؤمن الذي يقرأ القرآن ويتدبره، سواء كان ذلك شاقًّا عليه أم كان سهلاً عليه، فهو موعود بالأجر العظيم، والذخر الجسيم، كما في حديث عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ**»[2].

فلذلك، الذين يعرضون عن هذا التعلم بالكلية، ولا يهتمون به، ولا يجعلون جزءًا من أوقاتهم له لم يتحققوا بشخصية المسلم في هذا الباب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم (٥٠٢٧) عَنْ عُثْمَانَ (رضي الله عنه).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، (سورة عبس)، رقم (٤٩٣٧) ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه، رقم (٧٩٨) عَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها).

● سياسة ينهض بها

كذلك من مقومات شخصية المسلم، المقوم السياسي، فالمؤمن من مقومات شخصيته وأسسها أن موقفه السياسي محدد، منطلق من عقيدته، راسخ لديه، لا يتزحزح ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢١ ـ ٢٢].

هذا المقوم السياسي في الإيمان جزء من شخصية المسلم، يعرف المؤمن لمن ولاؤه، وعلى من تكون عداوته، ومع من يكون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الصف: ١٤]، فلا يلتبس عليه الأمر، ولا تزيغ به الأهواء، ولا يسير وراء كل ناعق يتقلب مع الرياح، ولا تذهب به المطامع يمينًا وشمالاً، موقفه ثابت صامد على وفق ما رضي الله له، وعلى وفق ما شرع له، كذلك المقوم الآخر المقوم الاجتماعي لشخصية المسلم.

● وادٍ من عطاء

فمن أسس بناء شخصية المسلم أنه يحب الخير للناس، ويحب أن ينفعهم، ويحب أن يكون من أودية الخير، فأهل السخاء هم أودية البشر في الأرض، أودية تمطر السماء مكانًا بعيدًا، فتنقل تلك الأودية المياه، وتسقي بها أماكن أخرى، فكذلك في الناس أهل السخاء، يكدون ويجمعون، ثم يصل خيرهم إلى من سواهم، ويتعدى نفعهم إلى الأباعد، وهؤلاء هم أودية السخاء في البشر، هم مفاتيح الخير، مغاليق الشر، والله (سبحانه وتعالى) امتدح الأنصار بهذا السخاء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

يسعى المؤمن في هذا المجال أن يكون وسيلة للخير، ووسيلة لتخفيف المعاناة عن الناس، ووسيلة لفتح أبواب الخير أيًّا كانت، وإغلاق أبواب الشر، لا يريد أن يستغل في باطل، ولا أن يكون سببًا لأذى الناس ومعاناتهم، بل يعلم أن ذلك من أوصاف المنافقين والمرجفين، ولهذا قال الله (تعالى): ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨]، يريد أن يكون مشعل هداية ونور، وأن يرحم عيال الله، والناس كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله يريد أن يخفف معاناة

أقوام، وما يلقونه من البأساء ليخفف الله عنه كما قال (تعالى): ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ٨ ـ ١١]، هؤلاء يخافون ذلك اليوم؛ فلهذا يعدون العدة من الآن.

● وعاء العقل

كذلك المقوم الثقافي فإن ثقافة المؤمن متميزة ليست كثقافة من سواه، فأهل الإيمان مصادره في التلقي معروفة واضحة، يعلمون أن الحق هو ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وأن الوحي كما أنزل، وأن الدين كما شرعه الله، وأنه لا يمكن أن يزاد فيه، ولا ينقص منه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فمرجعهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويرجعون إلى الراسخين في العلم فيما اختلفوا فيه من الحق، ويسألون الله الهداية والتنوير، لما اختلف فيه من الحق بين الناس.

ومن هنا، فليست ثقافتهم كثقافات الذين يتقيدون بالعصور، ويتقيدون بالحضارات والمدنيات المتباينة المتضاربة، بل ثقافة المؤمن تنطلق من الوحي المنزل؛ الذي يقول الله فيه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]،

فيحسمون مأخذهم ومرجعهم، ولا يحتاجون إلى التذبذب والسير وراء كل ناعق في مجال الثقافة.

● سلاح المال

كذلك المقوم الاقتصادي في شخصية المسلم، ومبناه على أن المسلم يعلم أن الأرض وما فيها لله وحده، وأن الرزق بيد الله، وأن المال مال الله، وما جعل تحت يده منه ليس له، وإنما هو أمانة عنده، يتصرف فيها تصرف الوكيل، ينتظر العزل في كل حين، والعزل إما أن يكون بالموت، وإما أن يكون بالحجر، وإما أن يكون بالافتقار، وإما أن يكون بالسجن، وإما أن يكون بغير ذلك، فهو يتصرف تصرف الوكيل، ينتظر العزل في كل حين، وهذا ما نبه الله عليه، بقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فهذا المال ليس لنا وإنما هو لله، ونحن مستخلفون فيه مدة محددة في علم الله، نحن لا نعلمها، ولكنها ستنتهي، تارة يكون الإنسان غنيًّا، وتارة يكون فقيرًا، ويتعاقب عليه الأمران، كثير من الناس ينظر إلى ذوي العروبة من الناس فيظنون أنهم أغنياء، والواقع أن كل واحد منهم يعتريه يوميًّا الفقر، لأن الفقر ليس معناه ألا يكون الإنسان قادرًا على الاكتساب، بل المقصود به أن تعرض له حاجة فلا يجد ما يحققها به، ما من غني على وجه الأرض من الأغنياء، إلا ويعتريه الفقر عدة مرات يوميًّا، يعرض له الكثير

من الحوائج ولا يستطيع قضائها، وهذا هو الفقر بعينه، ما الفرق بينه وبين الفقير في الحوائج الأخرى؟، الجميع فقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد.

ومن هنا، فنظرة المؤمن الاقتصادية أنه لا يحزن إذا حصلت الندرة في المواد، ولا يفرح ويبطر إذا حصل فيها الرخاء والاستمرار؛ لعلمه أن ذلك متعاقب ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وأن الأمر كله بيد الله، ومن هنا فتصرفه في كل ذلك مضبوط بضوابط الشرع، إذا حصل تضخم أو انكماش في الاقتصاد لم يقتضِ ذلك منه عدولاً عن الحق؛ الذي جاء به رسول الله ﷺ، ولم يقتضِ ذلك منه ادخارًا بأكثر من حاجته، ولم يقتضِ منه كنزًا لما لا يزكى ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

هذه مقومات شخصية المسلم، وعلى كل واحد منا أن ينظر إلى تنوعها واتساعها، فيرى شمول هذا الدين واتساعه، وتميز أهله في كل الجوانب، ويعلم بذلك أن هذا الدين دين الله، وليس دين الناس، وأنه هو الكفيل بقضاء حوائج الناس ومصالحهم كلها، ما كان منها دنيويًّا، وما كان منها

أخرويًّا، وأنه لا يعتريه النقص، وإنما يعتري النقص الناس فهم الذين يقصرون في التطبيق والأخذ بالدين، أما الدين نفسه فقد أكمله الله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾.

ومن هنا يتشبث المؤمن بهذه القيم والمبادئ؛ التي تميزه عمن سواه، ويعلم أن شرفه وعزته ومكانته مرتبطة بهذه القيم، وإذا فرط في شيء منها انتقص ما يقابل ذلك، فللّه العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولذلك لا يمكن أن يبتغي العزة في غير الدين؛ لعلمه أن عزته مرتبطة بهذه القيم.

النـهر nhr-azb

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
كيف نعمل للإسلام؟	٩
● لا ينقص الدين وأنا حي	١١
● جبهات ومعارك	١٤
● قد بعثها الله	٢٠
● الطريق الطويل	٢٦
● الراية البيضاء	٣٨
● وشوشة الشيطان ووسائل تخويفه	٥٤
● نحن لها	٥٩
التوازن والاعتدال في حياة المسلم	٦٣
● موازيننا لا تختل	٦٥
● السهم المضروب في موضعه	٧٥
● سباحة لا غرق	٧٩
● رصاص المؤمن ليس على صدره	٩٥
● أئمة يقدَّرون ولا يقدَّسون	١٠٢
● ولا تجعل الدنيا أكبر همنا	١٢٠
● ولنا سياحة في عالم الترجمات	١٢٦

الموضوع	الصفحة

- انفتاح بلا ذوبان ١٢٩

مقومات شخصية المسلم ١٣٣

- أسس تميزنا ١٣٥
- عابد بطبعه... عظيم بقلبه ١٤٤
- الدين المعاملة ١٥٥
- متألِّه أوَّاب ١٥٩
- محب متبع ١٦٥
- سمو الأخلاق وسعتها ١٦٧
- ويرجو ما عند الله ١٧٦
- إنما السيادة بالعلم ١٨٥
- بالقرآن نحيا ١٨٩
- سياسة ينهض بها ١٩٠
- وادٍ من عطاء ١٩١
- وعاء العقل ١٩٢
- سلاح المال ١٩٣

فهرس الموضوعات ١٩٧